في معنى العمل

و مقالات أخرى
في التربية و الفن
و المنطق العلمي

وهيب سراي الدين

في معنى العمل....

ومقالات أخرى في التربية و الفن و المنطق العلمي

دار رسلان

اسم الكتاب:في معنى العمل و مقالات أخرى في التربية و الفن و المنطق العلمي.
المؤلف:وهيب سراي الدين.
سنة النشر:2012.
عدد النسخ:1000نسخة.
الترقيم الدولي:ISBN 978-9933-439-96-5.
الناشر:دار مؤسسة رسلان.

يطلب الكتاب على العنوان التالي:
دار رسلان للطباعة و النشر والتوزيع
دمشق-جرمانا-الآس الشرقي
هاتف:00963115627060
00963115637060
فاكس:00963115632860
www.darrislan.com

جميع العمليات الفنية و الطباعية تمت في دار مؤسسة رسلان

الإهداء

إلى أحفادي:

أدهم، وأصيل، وكريم، وفراس، وحمزة،

و سلطان.

محبةً وامتداداً....

في معنى العمل

كل كائن حي في هذا الوجود يحيا بالعمل، وبه يوجد، وعليه يرتكز. وتتصاعد درجة العمل حسب تطور النوع لذوي الحياة، ففي النبات تقتصر وظيفة العمل على تقديم ما تحتاجه النبتة في تغذيتها ونموها حتى تستكمل دورتها الحياتية، وتجف وتموت. أما الحيوان، فالعمل عنده حاجة للنوع، وامتداد لرغبة البقاء. أي أنه لم يرق بعد لينفصل عن الطبيعة. وكان العمل هكذا عند الإنسان الأول- الإنسان البدائي - حيث ظل زمناً سحيقاً جزءاً من الطبيعة. وظيفة العمل لديه تأمين ديمومة النوع وتلبية الحاجة اللازمة للحياة والبقاء. أو بعبارة أخرى مقابلة. كان العمل آنذاك جهداً فاعلاً ينتزع من العالم (الطبيعة) كل ما هو ضروري لحفظ البقاء النوعي.

ولكن بفضل تطور الطبيعة الفائق في جسم الإنسان، ولا سيما في دماغه، وبفضل ما ميزته به عن سائر المخلوقات الحية من قدرة على تجاوز الغرائز الحيوانية. التي مهمتها فقط تأمين متطلبات الأعضاء لتقوم بوظيفتها الفيزيولوجية - و كأن هذه

الوظيفة هي العمل، ممثلة الغاية في الوسيلة والوظيفة بالأداة والعمل بالعضوية حتى قال أرسطو في كتابه ((الكون والفساد)): إن اليد والدماغ هما عضوا فعل، فمتى تعطلا عن العمل كأنهما غير موجودين - قلت ما ميزت الطبيعة الإنسان عن سائر الكائنات الحية من قدرة على تجاوز الغرائز الحيوانية في خاصتي العقل والتفكير ليؤدي الإنسان وظيفتيهما خارج نطاق الذات، في البيئة والوسط الذي يعيش فيهما.

وبفضل تطور الإنسان في استعمالهما، بفضل كل ذلك كان العمل الإنساني. وكان المجتمع الإنساني. وكانت الحضارة. قال ديكارت: الغرض من العمل مهما كان. رفاهية الإنسان وسعادته في هذه الحياة الدنيا، وسلطانه على الطبيعة واستخدام قواها لصالحه.

ولنقف عند هذه الجذور الأولى للعمل. فنجد أن العمل فيها لم ينفصل لدى الإنسان عن الطبيعة إلا عندما صار الإنسان يستعمل فيه عقله وفكره. وبالتالي عندما أصبح العمل صورة أو مشروعاً أو نموذجاً في ذهن الإنسان. وهنا تتبادر لنا فكرة يجب أن نوضحها. وهي أن نشاط الإنسان الفكري والعقلي والذهني عمل أو جزء لا يتجزأ من العمل الذي يمارسه بعضل جسمه. فنشاط الإنسان في

عضـلات أعضـائه، وفـي خلايـا دماغـه عمـل. وقـد نـوه مــاركس فــي كتابــه رأس المــال عــن هــذه الصــلة بــين العمــل الفكــري والعمــل الجســمي، وقــال أنهــا موثوقــة بــروابط لا تنفصــم، فالعمــل عنــده هــو اســتخدام قــوة العمـــل. وهـــي هـــذه مجمـــل الخصـــائص الجســـمانية والذهنيــة الموجــودة فــي شخصــية الإنســان الحيــة التــي يحركهـا لينـتج أشـياء نافعـة. مـن خـلال الـراهن، الـذي يتحــول باســتمرار نحــو الــذي يجــب أن يكــون. وهكــذا أصـــبح للعمـــل معنـــى تجريـــدياً إلـــى جانـــب معنـــاه التشخيصــــي. وصــــار يتســــامى عــــن الممارســــات والمعانـاة المنفـذة علـى الصـعيد الـواقعي - كمـا أشـرت - هـدفاً مسـتقبلياً واعيـاً. أي هـدف سـابق الوجـود للفعـل الإنســاني نتجــه بــه نحــو الــذي يــأتي. علــى شــرط أن تكـــون صـــيرورة هـــذا الاتجـــاه مـــن خـــلال الواقـــع وفرضـــياته،كما يقـــول (روجيـــه غـــارودي).
إذن نـرى أن نشـاط الـذهن أو عملـه، سـواء أكـان عقـلاً أو فكــراً يــدخل بقــوة فــي معنــى العمــل مــن خــلال الكــائن، مــن خــلال الــراهن الــذي يتحــول باســتمرار نحو الذي يجب أن يكون.
ويكثــر القــول فــي هــذا المعنــى الفكــري أو الفلســفي للعمـل مـن قبـل المفكـرين والكتـاب. حتـى أن بعضـهم يـتحمس أكثـر ويعتبـر أن النشـاط الـذهني هـو الأسـاس فــي العمــل، ونحــن لا ننكــر، كمــا علمنــا مــن ســياق

الحديث، لا ننكر قيمة النشاط الذهني (الدماغي) في خلق العمل وتطوره، ولكن يجب أن نعترف بالمقابل بالممارسات العملية الأولية التي كان لها الدور الكبير في خلق النشاط الذهني لدى الإنسان. وبالتالي في تطور عمل الدماغ في رأسه، ولا أظن أن أحداً ينكر ما للممارسات العملية الحية من مردود جليل في ذهن الإنسان، أي الواقع المادي العملي هو قبل و أساس الواقع العقلي لدى الإنسان ونرى قديماً الفيلسوف اليوناني (أناكسوغوراس) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، قد أشار إلى هذا المعنى، فقال أن العقل لدى الإنسان هو محصول عمله اليدوي.

كما نرى المعنى نفسه في الفلسفة الحديثة، فهذا (برغسون) الفيلسوف الفرنسي يقول أن عقل الإنسان لم يتكون ويتطور إلا لأن له يدين تصنعان الآلات. وحمل على المتصوفة الذين يحتقرون العمل. وقال كلمته المشهورة: العمل جوهر الوجود، وهناك من تحمس وغالى فتبنى مقولة (ديكارت) معكوسة: أنا أعمل إذن أنا موجود، هذا بالإضافة إلى ما تتبناه العقيدة الماركسية في إيديولوجيتها المادية المشهورة. على كل. إن مشكلة أسبقية العقل والمادة، أو بتعبير آخر أسبقية العمل الفكري والعمل العضلي، ليس مخصصاً المجال

لهـا، ونكتفـي بهـذا الإلمـاع الخفيـف لنظهـر ذلـك التفاعـل الجـدلي بينهمـا. أي لنشـير إلـى هـذا التبـادل النـافع الـذي يـتم بينهمـا، والـذي اسـتفادا منـه معـاً فـي تقـدمهما وتطورهمـا. والـذي سـيبقى بينهمـا بالضـرورة إلى ما لا نهاية.

وبعـد تطـوير العمـل لـدى الإنسـان عـن العمـل لـدى سـائر المخلوقـات فـي هـذا الوجـود بمـا اكتسـبه مـن صـفات معنويـة أو مـن معـان خلقيـة لا بـد لـه - أي للعمـل - مـن تطـوير معنـاه علـى الصـعيد الـواقعي فـاعتبر حقـاً وواجبـاً معـاً، علـى الإنسـان، بـل اعتبـر كحـق طبيعـي للإنسـان، وواجـب طبيعـي عليـه، يأخـذه ويؤديـه بكـل مـا يملكـه مـن قـوى ومكنـات. قـال بـابوف فـي بيـان الاسـتبداد عـام 1796 ، الـذي نشـره إبـان الثـورة الفرنسـية الكبـرى! إن النـاس كلهـم ملزمـون بالعمـل. وأضـاف الفكـرة نفسـها سـان سـيمون الاشـتراكي الفرنسـي المعـروف: إن المجتمـع ملـزم بتـأمين العمـل، والكـل ملزمـون بـه. وقـال زميلـه لـويس بـيلان: للإنسـان الحـق أن يحيـا ولا يتحقـق هـذا الحـق إلا بالعمل.

وهكـذا أصـبح للعمـل معنـى حقوقيـاً إجرائيـاً فـي المجتمـع، فـاعتبر أنـه حـق طبيعـي وواجـب طبيعـي لكـل إنسـان فـي هـذا العـالم. فكـل فـرد يجـب أن يفسـح لـه المجـال لممارسـة العمـل وتأديتـه. ومـن هـذا المعنـى

الحقـوقي للعمـل نصـل إلـى معنـى آخـر هـو المعنـى الاجتمـاعي. لأن الحقـوق والواجبـات لا تمـارس إلا ضـمن نطـاق المجتمـع. لمـا كـان العمـل حقـاً طبيعيـاً للإنسـان، أصـبح بالمقابـل واجبـاً طبيعيـاً مترتبـاً عليـه.
إذن العمـل فـي المعنـى الاجتمـاعي يجـب أن يـؤدى ويمـارس ضـمن إطـار الجماعـة. ولـذلك لا يقـوم العمـل فـي الوسـط الاجتمـاعي إلا علـى أسـاس التعـاون والتضامن حكماً.
وبـالطبع هـذا المعنـى التضـامني (الاجتمـاعي) للعمـل يسـيطر علـى مجـال الضـرورة لـدى الفـرد ويهيئـه إلـى مجـال الحريـة، فينمـي فيـه البـوادر المتحـررة التـي تقـوي الأواصـر الاجتماعيـة وتمـتن الـروابط بـين أفـراد المجتمـع. فتـدخل فـي معنـى العمـل مـن هـذا البـاب الوحيـد، ويصـبح العمـل تعبيـراً عـن حريـة الإنسـان الجماعيـة لأداء العمـل. أو بتعبيـر أقـوى، أقـول لتغييـر الطبيعـة واسـتخدامها. وفـي هـذا المعنـى يحضـرني هـذا التنويـه، ولا أدري مـن صـاحبه: إن الأشـخاص الكثيـرين الـذين يقبعـون فـي معـاملهم أو وراء أنـوالهم ومحـاريثهم هـم الأكثـر تمجيـداً لإرادة الإنسان في الحرية والتقدم في العالم لأنهم يعملون.
ومـن هـذا المعنـى، معنـى الحريـة الاجتماعيـة للعمـل، أصـبح العمـل شـرفاً ونـبلاً للإنسـان، بحـد ذاتـه، لا عبئـاً يثقـل كاهلـه ويحـط مـن قـدره. أو بالتـالي أصـبح قيمـة

اجتماعيــة عاليــة ســامية تــرتبط بالواجــب الــوطني والإنسـاني معـاً. ولهـذا لا عجـب إذا وجـدنا لهـا صـفات الاحتــرام والتقــديس فــي كــل المجتمعــات. حتــى قــال (لامنيــه) الفرنســي: العمــل واجــب مــن قبــل الله تؤديــه الإنسانية كمهمة.

وطبعـاً مـن خـلال هـذا المفهـوم الاجتمـاعي للعمـل، أو فـــي مرحلـــة اجتماعيـــة العمـــل، أي ممارســـة العمـــل اجتماعيـاً. تمكـن الإنسـان أن يطـور ويكـوّن ذاتـه وفقـاً للمجتمع ولمتطلبات البيئة القائمة.

وهكــذا راج المفهــوم الاجتمــاعي للعمــل وتــم تقســيمه فـــي المجتمعـــات الإنســـانية واتخـــذت عمليـــة تقســـيم العمـل فـي المجتمـع لهـا حيـزاً كبيـراً فـي بحـث فلسـفة العمــل، وشــغلت فــرز المفكــرين. فمــنهم مــن اعتبــر تقسـيم العمـل فكـرة متقدمـة علـى مسـار تطـور العمـل الإنســاني - وشــبهوا فــرز الاختصــاص وتحديــد نــوع المهمـــات والوظـــائف فـــي أعضـــاء (أفـــراد) جســـم المجتمـــع بتحديـــد مهمـــات ووظـــائف الأعضـــاء فـــي جسـم الإنسـان، تخصـص كـل منهـا فـي وظيفـة - عمـل يخصـــه. ومـــنهم مـــن تفـــاعل أكثـــر فـــاعتبر فكـــرة تقســـيم العمل وسيلة للتعاون والتراص الاجتماعي.

وبــالعكس مــنهم مــن تشــاءم مــن تقســيم العمــل واعتبــره تعطــيلاً للفكــر الإنســاني. لأنــه يعتمــد علــى التكــرار. ومــنهم مــن اعتبــره وســيلة للاســتغلال والتســلط. ومهمــا

يكن من أمر فإن تطور التاريخ الحضاري للإنسانية فرض تقسيم العمل في المجتمع والتخصص بنوع معين بين الأفراد فيه.

ومن هذه الزاوية أصبح ينظر للعمل من حيث الإنتاج والمردود الاقتصادي. فدخل العمل منها في معنى الاقتصاد من بابه العريض الواسع، حتى طغى عليه هذا المعنى في القرن التاسع عشر، وأصبح العمل لا ينفصل عن الاقتصاد. حتى نالت فكرة اقتصادية العمل هذه حماسةً كبيرةً لدى البعض و أورد مثالاً لها ما قاله (ثولان) المفكر الفرنسي عندما أعلن أن المجلس النقابي العمالي هو المؤسسة الاقتصادية الأم، وهو مؤسسة كل تقدم اقتصادي.

ولكن بهذا المعنى الاقتصادي للعمل، أصبح هذا- أي العمل- مطية له ووسيلة لاستغلال العمال وجماهير الشغيلة في العالم من قبل الطبقات والفئات المتحكمة اقتصادياً في المجتمعات. وبعد هذا يوضع العمل على مشرحة مفكري الاقتصاد السياسي ليحلل كسلعة اقتصادية فحسب. فنرى مثلاً أن كلمة (عمل) لدى بعض الاقتصاديين النظريين التجريديين اتخذت عندهم مدلولاً رياضياً بحتاً، فالعمل يساوي استخدام جهد ما لأداء شغل ما. وهو يشترط إذن قوة. فيكون هو تطبيق قوة ما خلال

مساحة ما وضمن زمن ما. وبالتالي نصل إلى أن العمل هو طاقة محققة فعلاً. ولما كان العمل طاقة فله إذن قياس، هي وحدة قياس الطاقة. وهي (الأرج) المعروفة عند علماء الطاقة والفيزياء وإلى هنا هذا الكلام صحيح بالنسبة لتجريد وتنظير مفهوم العمل العلمي. ولكن للعمل في معنى الاقتصاد مفهوماً أوسع وأعمق من هذا المفهوم العلمي الرياضي المجرد. له مفهوم تاريخي جدلي. فيدخل كعنصر مادي في الحضارة الإنسانية. وكأساس فاعل في صيرورة المجتمعات البشرية، وكقوة فرز تاريخية في بناها الطبقية.

و أول و أقوى من عالج هذا الموضوع في العمل، على الإطلاق، هو (كارل ماركس في كتابه الشهير - رأس المال). فالعمل عنده ضرورة أبدية. أي هو الوساطة للدورة المادية القائمة بين الطبيعة والإنسان، إذن العمل، هو قيمة. قيمة نافعة ثرّة. قال أنجلز في هذا المعنى: العمل هو مصدر كل ثروة ومقياس جميع القيم.

ولكن لا يأخذ العمل عند ماركس معنى هذه القيمة إلا عند تجمده أو تشيّئه. أي عندما يتخذ شكل شيء من الأشياء. أي عندما يتجسد مادة وهذا لا يتم طبعاً إلا بعد اندماجه - اندماج العمل - في موضوعه، وبعد هذا الاندماج يتحصل قيمة إضافية جديدة تنقل

للموضوع من كمية العمل التي أداها العامل. فالعمل بوساطة قوة العمل - أي بوساطة العامل - هو خالق القيمة وهو الذي يحول شكلها ويزيد من أهميتها ومكانتها.
إذن في عرف ماركس وأنجلز، العمل هو مصدر كل القيم وخالقها في العالم. ومن بينها طبعاً القيم الاقتصادية، والثروات التي ازدادت في القرن التاسع عشر الذي عاش فيه ماركس، ازدياداً هائلاً.
ولكن لنلاحظ أن ماركس لا يعطي لقوة العمل - أو لطاقة العامل على العمل -صفة فردية ذاتية؛ بل صفة جماعية. حيث يعتبر القدرة، أو الطاقة على العمل- أو العامل - منتوجاً مجتمعياً. فقدرة العامل على العمل توازي العمل اللازم مجتمعياً لا نتاج القدرة على العمل وإعادة إنتاجها.
ومن ثم تصدى ماركس - كما هو معروف - لسرقة العمل. أو بالأحرى لسرقة قوة العمل، من قبل الرأسمالية. هذه الطبقة الطفيلية التي تعيش على حساب جهد وعرق فئات العمال والشغيلة دون حق. قال جوزيف برودون الفرنسي الذي عاش في النصف الأول من القرن التاسع عشر أن كل ملكية تجيء من غير طريق العمل فهي سرقة.
قلت تصدى ماركس لسرقة قوة العمل، وذلك بتحليله للعمل والقيمة وفضل القيمة. ثم شرح

المـذاهب البرجوازيـة وعرّاهـا تعرّيـة كاشـفة. وبنـي بالمقابـل لهـا إيديولوجيـة الاشـتراكية الشـهيرة، لقـد اعتبـرت الطبقـة البرجوازيـة ومفكروهـا أن العمـل لـيس إلا سـلعة للبيـع والشـراء، أي أن العامـل يبيـع جهـده - عملـه - أو يـؤجره للمسـتثمر الرأسـمالي. ومـا العامـل أو الشـغيل عنـد هـذا الرأسـمالي، إلا قـوة عمـل اشـتراها بمالـه. وفـي المناسـبة تسـتعمل الرأسـمالية كـل الفنـون فـي اسـتغلال وابتـزاز هـذه القـوة بتقنيـة زائـدة. فمـثلاً النظـام الرأسـمالي (التـايلوري) المعـروف, يقـيس حركـات العامـل لموافقتهـا مـع الآلـة الملائمـة ليعطـي فيهـا أكبـر مـردود بـأكبر جهـد بأقـل زمـن. وقـديماً كـان أشـراف رومـا (الرأسـماليون) ينظـرون إلـى العمـل والعامـل النظـرة نفسـها، الاسـتغلالية الابتزازيـة حتـى بـالغوا بـالأمر. فـاعتبروا العامـل ملكـاً لـرب العمـل بلحمـه ودمـه. فالشـريف الـذي سـلّف العامـل - قـوة العمـل - المـال اعتبـر أن هـذا العامـل أصـبح ملكـه الخـاص يتصـرف فيـه كمـا يتصـرف بإحـدى عقاراتـه مـثلاً. لأن المـال الـذي سلفه إيـاه دخـل فـي جسـمه عـن طريـق الغـذاء الـذي اشـتراه بـه فتحـول فـي جسـمه إلـى لحـم وعظـم ودم. إذن هـذه الأشـياء الثلاثـة أو هـذا الشـيء الجـامع لهـا ككـل الـذي هـو العامـل، هـو مـال الشـريف بشـكل آخـر فيجـب أن يسـتغله ويسـتثمره، كقـوة عمـل لصـالحه الخـاص

استغلالاً تاماً. وأجزم أن ملكية العامل هذه لهي أبشع صور النفي والاستلاب الإنساني في تاريخ العمل البشري.
واشتدت قبضة الطبقات الاقطاعية، وبعدها البرجوازية التي صارت فيما بعد رأسمالية. اشتدت أكثر في استغلال العمال وشراء قدرة العمل منهم بثمن بخس متعسّف. فكان الظلم الاجتماعي والاقتصادي لفئات العمال والشغيلة. فانبرت أقلام عدة تدافع عنهم وتوعيهم وتفهمهم قضيتهم وحقوقهم. وجنت هذه الزروع حصاداً غنياً حيث انتظم العمال في حركات مقاومة للرأسمالية في دول عدة. وطالبوا برفع الظلم والاستغلال، وبحقهم الكامل في استغلالهم قوة عملهم وملكيتهم الشرعية لها. وأهم و أكبر الحركات العمالية التي ثارت وطالبت في حقوقها في تاريخ العمل، هي حركة العمال الإنكليز المعروفة بالميثاقية (الشارتية) التي انتظمت في صفوفها جماهير العمال في بريطانيا عام 1932 و أعلنوا حقوقهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. بموجب ميثاق، فسميت هذه الحركة باسمه.
بعد هذه الجولة الطويلة نوعاً ما في معنى العمل، أو فكرته، آن لنا أن نقف قليلاً على دوافع العمل

لدى الإنسان أو بالأحرى على المعنى النفسي للعمل.

وهذه حقيقة مطلقة! أن يكون للعمل عوامل ودوافع نفسيه. إذ مما لا شك فيه أن في العمل تتجلى شخصية الإنسان وتظهر كل صفاته ومعانيه, فالعمل الذي وجد من أجل الإنسان. لا بدَّ أن تستبطن فيه روح العمل وتستكن في أعماق نفسه غاياته ومراميه. فهذه الجذور النفسية الأولية للعمل لا بد أن تصقل الإنسان باطناً وظاهراً. نفساً وجسماً. وتقربه نحو أسمى معانيه وكمالاته. قال ديكارت: إن الغرض من العمل تكميل النفس. وهذه الأصول الأولى للعمل في نفس الإنسان أتى عليها (فرويد) في بحوثه المشهورة في التحليل النفسي وعلم النفس. حيث قال أنه توجد غرائز طبيعية لدى الإنسان ضمن غرائزه الجنسية. وتحرير غريزة العمل يعبر عنه في المجتمع بوصفه تعاوناً. أن يقوم على أساس التضامن. إذاً عند فرويد العمل غريزة تملي على الإنسان رغبتها في التنفيذ، ولكن لتدرك أنها تصبو في هذه الرغبة نحو اللذة الذاتية، ولن تتخذ عنده المفهوم الاجتماعي الإنساني المسؤول. وقبل فرويد نرى (فورييه) يقول بأن العمل مصدر لمتعة حقيقية ويجب تكيفه حسب الميول. كذلك نرى (أوين) الانكليزي يركز على

جعل قيمة أخلاقية للعمل. والناس يؤدون به خدمة من ابتهاجهم. أما (فيختته) الألماني فيقول بتوجيه العمل نحو الرغبة. ويفسر ذلك، إذ يشير إلى أن اللذة الناجمة عن العمل تجعلنا تابعين للأشياء، واللذة تجعلنا نعمل.

إذاً كلهم يدورون في دوامة الذات الفردية ودافع - الأنا لا النحن - للعمل، وهذا المعنى الذاتي النفسي قد اضمحلّ وجمد في مكانه نظراً لمخالفته المقومات الأساسية التي يرتكز عليها العمل لدى الإنسان والمجتمع على حد سواء، كما أشرت سابقاً. ولا تبقى إلا معاني العمل ودوافعه النفسية الجماعية التي تهيمن عليها الروح الغيرية وتوجهها الرغبة المجتمعية المتأصلة في النفس الإنسانية.

****

وحدة الفكر والعمل لدى الإنسان

طبيعة الحياة العملية التي يعيشها الإنسان، جعلته وجهاً لوجه أمام مقارعة الطبيعة نفسها، وممارسة الاختبارات فيها، والاحتكاك بالواقع، الأمر الذي جعل لديه تفاعل العقل والعمل، الفكر والتجربة، وهذا ما آل إلى استنتاج الحقيقة الغنية، الصالحة لبناء الحضارة بكل معطياتها العلمية والتكنولوجية والاجتماعية، والاقتصادية.

وهكذا نرى أن الإنسان بفطرته على العمل، وبمعايشته للواقع، يكون أكثر المخلوقات التصاقاً بالحقيقة ومساهمة في صنع المعارف، ومشاركة في نقلها وتقديمها كغذاء دسم للحضارة الإنسانية، هذه الحقيقة التي نبتت مع المعارف العلمية على جذور عملية راسخة، وارتكزت جميعها إلى أصول واقعية في التجربة الحية، واتخذت مفاهيمها في التطور والتقدم، في العصر الحديث، وبخاصة مفهوم الحقيقة النسبية التي تحطمت على مبدئها الحركي الدائم، مبادئ الحقيقة الثابتة أو المطلقة.

ومن تأثير الحقيقة الواقعية النسبية على مبدأ الحقيقة ككل، واعتدالها عن المفاهيم المطلقة. تأثرت الحركة الفكرية في العالم، فانعطفت حركة الفلسفة عن مفهومها المثالي البحت، واتجهت نحو الواقعية التجريبية، وأصبحت تعني بمضامينها الجوهرية جملة القوانين المكتسبة بالتجربة أي بالعمل وليس بناء على مفاهيم مسبقة الصنع ثابتة وآراء فردية ذاتية، قال أحد الفلاسفة المحدثين ((إن الفلسفة الحقيقية يجب أن تعنى لا بمجرد التأمل، ولكن بوحدة الفكر والعمل)).

لذا، الفكر يتخصب بالواقع والعمل معاً، ويطرح علمياً ما يعرّيه من المساهمة العملية والتجارب الواقعية الحية التي أغنت الذهن الإنساني في حقائق الأشياء وزادت من معارفه في جوهرها ومضامينها، لذا يجب استيعاب هذه الحقيقة التي لا جدال فيها وهي أن يترتب على المفكر المنظر أن يتمسك بالواقع الحي الخصب، والوقائع الدقيقة الملموسة من أجل تبيان الجوهري العام في إعطاء تقدير تقريبي لتعقد الحياة، يقول (غوته) في مأساة (فاوست): " إن النظرية رمادية اللون يا صديقي، ولكن شجرة الحياة خضراء إلى الأبد".

فالحقيقة بين النظر والعمل الحي إدراك موضوعي يتولد بفعل الوعي الناتج عن التفاعل المتجدد مع

الوسط الخارجي والتلاؤم المستمر مع ضرورات ومتطلبات الظروف.
وأمام هذا المفهوم الجديد للحقيقة ومنطلقها العلمي - العملي، يحضرني أن أسجل اعترافاً للفيلسوف الفرنسي الشهير (هنري برغسون) قال: " المعرفة لم تعد نتاجاً للعقل وإنما تصبح بمعنى ما جزءاً لا يتجزأ من الحقيقة الواقعية.. الشيء الخليق بالإعجاب، والجدير بالدهشة هو الخلق المتجدد المستمر الذي تقوم به الحقيقة الواقعية الكلية غير المنقسمة... أن الحقيقة الواقعية هي نمو مستمر وخلق متتابع لا نهاية له".
يتحمس للفكرة الفيلسوف الفرنسي (مارسيل غابريل) فيحكم بإدانة كل من يخالف هذا المبدأ، وعلى كل، تحصل من هذا النهج للحقيقة الاهتمام بالرأي العام، أو بالفكر المتولد عن "الكثرة" إذ يعتبرها المعين الأول للتعليم واستلهام الحقائق والمعارف، والنظر بموضوعية في جوهر الأشياء، يقول أحد المفكرين في هذا الصدد:" يتهموننا بأننا نخترع رأي جماهير الناس، إننا نصوغ هذا الرأي فقط".
وهذا يكون استناداً إلى العلاقة الجدلية - الديالكتيكية التي تربط بين العامل البشري وبين العامل الموضوعي، حيث يعني بالعامل الأول أسس

الممارسة الإنسانية الواعية لتغيير المجتمع والطبيعة، وبالعامل الثاني يعني انعكاسات ومعطيات الأحوال الاجتماعية السائدة ومنها الاقتصادية والثقافية الخ... ومن هذه العلاقة الجدلية انحصر الحصول على الحقيقة في طريق تحقيقها على الأيدي العاملة بكل ما لكلمة "العمل" من معنى، قال الفيلسوف اليوناني(آنا كوغوراس) في هذا الموضوع:" إن عمل العقل الإنساني ما هو إلا محصول عمله اليدوي".

وهذه الفكرة يعيد صياغتها الفيلسوف (هنري برغسون) المار ذكره يقول: "إن الصفة الجوهرية للإنسان هي أنه كائن عامل، فعقله لم يتكون ويتطور إلا لأن له يدين تصنعان الآلات" أي الذي يخوض غمار الحياة والعمل يتعلم كما يتعلم من الكتب، فقال فيلسوف آخر:" إن الحياة خير معلم".

وهكذا يتم خلق الأفكار والمفاهيم في الواقع والحياة، نلمسها من خلال الممارسة والتجربة والاحتكاك العملي لها في الطبيعة والأشياء، ويرفعها الذهن من درجة الفهم، وتجريد الوقائع إلى مرتبة الوعي الموضوعي والنضوج الذاتي.

إذن يجب التركيز على التفكير داخل الحياة القائمة على النشاط البشري وما تصنعه الطاقة المختزنة في أفراده، تبقى آخذة في حركتها مفهومها

التـــاريخي المبنـــي علـــى مبـــادئ الجـــدل الموضـــوعي القائم على الصراع الدائم والمستمر في الوجود.

وهكـذا يتبلـور أكثـر القيـاس الموضـوعي فـي معرفـة جـواهر الأشـياء... وعنصـر الرؤيـة للـذات التاريخيـة فـــي "الحقيقـــة" التـــي لا تعـــيش إلا فـــي نهـــر الحيـــاة الواسعة.

****

في جدل الغاية والعدالة والسعادة

إن كل شيء في هذا الوجود، سواء أكان فكرة أو مادة، يسعى إلى مثل أعلى له يجب أن يكونه، أو هدف أسمى يُصرّ أن يحققه، وبعد قطع مسافة من هذه الصيرورة، يصبح تقييم الشيء ذاته وسيلة لغاية أكمل، تكمن خلفه، وتصبح هي علة كونه تستخدم في سبيل الوصول إلى غاية أرفع منها، تقع مراكزها فيما وراء الغاية نفسها.

أو بتعبير آخر، ما ورائية الغاية هذه التي تستهدفها هي ، سر وجودها لدى الإنسان، وهي مبرر فلسفتها ومطمح تطلعها.

إذاً، ماذا تكون هذه الغاية التي نسعى إليها في حياتنا الاجتماعية؟ نحن نعرف من خلال دراسة حركة التاريخ المجتمعي، على الصعيدين الفكري - النظري - والتطبيقي - العملي، أن غاية العدالة، بمحض مفاهيمها الجوهرية، قد التزمت بحياة الإنسان، وصاغت نفسها أداة لتنظيم مجتمعه وتطور وجوده، لتصل إلى ما تنشده على الدوام، وهي سعادة الإنسان وإقامة مجتمعه الإنساني

البحـــت، ولكـــن لا يغــرب عـــن بالنـــا أن ذلـــك لا يـــتم بسـهولة، بـل لا نصـل إلـى جـزء مـن ذلـك إلا بصـعوبة ومشـــقة بـــالغتين، فلقـــد ســـلكت حركـــة العدالـــة فـــي المجتمـع الإنسـاني، ومازالـت، مـن أجـل إنجـاز بعـض المكاســب النســبية فـــي مهماتهـــا و أهـــدافها، طريقـــاً طويلـة مـن النضــال والكفـاح المريـرين عبـر التـاريخ، فقيمـت الأنظمـة الاجتماعيـة والاقتصـادية التـي كانـت تســود المجتمـــع البشـــري وتـــتحكم بإنســـانه المنـــتج، فوسـمتها بـالظلم والجـور وراحـت تعمـل علـى رفـع و إزالـــة كـــل مـــا يـــنجم عنهـــا مـــن أوضـــاع اجتماعيـــة و اقتصـــادية وسياســـية وفكريـــة وأخلاقيـــة، تكـــافح مـــن أجـــل ذلـــك بحـــرارة صـــوفية اســـتمدتها مـــن عقائـــدها ومبادئهـا الصـارمة، فأعلنـت بـدافع مـن حتميـة التـاريخ الإنســاني مــن خــلال حركتــه التــي لا تتوقــف، أعلنــت بطـــلان تركيبـــة الظلـــم الاجتمـــاعي، ونـــادت بســـيادة الحـق والعـدل والمسـاواة، حتـى يـتم توزيـع الـدخول علـــى الأفـــراد كافـــة، كـــل فـــرد حســـب اســـتطاعته الإنتاجيـة، وقدرتــه العمليـة، وطاقتــه الفكريـة، والـدمج فـــي طبقـــة اجتماعيـــة واحـــدة متســـاوية فـــي الحقـــوق والواجبـــات ومتكافئـــة فـــي المســـاهمة بالإنتـــاج والخيرات على حد سواء.

ولهـذا فقـد شـن المصـلحون الإنسـانيون، والمفكـرون الاجتمـــاعيون، عبـــر القـــرون المديـــدة، أفكـــارهم

وكفاحهم ضد نظام الرق قديماً، ثم زادوا في تكريس مفاهيم نضالهم ليعمقوها عمودياً وينشروها أفقياً لتكون في خدمة الشعب بكل فئاته.
أجل، إننا نرى العالم اليوم يعيش، في ظل هيمنة نظام القطب الواحد، الذي انفلت خلسة عن مسار التاريخ، ليلقي على هذا العالم أزماته الإنسانية الخانقة الناتجة عن الامتيازات والتسلط والشوفينية والفوقية والتحكم بالمصير السياسي والاجتماعي للدول، وبالتالي لتكريس الاغتراب الخلقي والفكري والثقافي لدى الشعوب، الأمر الذي ضاعف الكفاح العدالي لدى المجتمع البشري ليقاوم هذا التعسف الطارئ الجديد، وهكذا أخذت العدالة نفسها تعري هذا التطرف في السلوك الدولي وتنادي أكثر فأكثر بنفي التناقضات الاجتماعية ومحاربة الأوضاع الدولية المنحرفة لتصل إلى مجتمع إنساني سليم وعادل وسوي، نهجه مستقيم واضح، وعلاقاته مبنية على الحق والعدل والمساواة، معتمدة العقل والعلم في تحقيق ذلك، ومن الطبيعي ستؤول كل هذه الأمور الصحية إلى خير الإنسان على سطح هذه الكرة الأرضية وإلى سعادته فرداً ومجتمعاً وفق النظام الذي اصطفته إرادة الحياة البشرية نفسها.

ومن هنا تنطلق ثورة العدالة الاجتماعية هذه في المجتمع الإنساني من أجل تبديل البنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية وما نتج عن نظام القطب الواحد، لتصب بعد التبديل في مصلحة التقدم وتحرير الإنسان من كل ألوان الاضطهاد والاستغلال، وإزالة العراقيل من أمام عجلة التطور العلمي والحضاري، إذاً لا غرو أن تجند كل القيم التقدمية والأفكار المتنورة الذكية والمناهج العقلية، في العالم، لتقوم بتنسيق العلاقات البشرية بالشكل الذي تتفتح فيه الروح الإنسانية، بديناميكية فاعلة، تكون حية مثمرة في صراع الإنسان الخالد مع نفسه ومجتمعه والطبيعة، ليصل بعد ذلك إلى الحياة اللائقة الكريمة المنفتحة على الحق والخير والجمال، والمرتكزة على العدل والحب والمساواة, والمنطلقة نحو العطاء في عالم القيم والأخلاق والإبداع، على سطح هذا الكوكب الأرضي الواحد.

إذن نفهم أن جدل الغاية والعدالة ليس هذه الثورة في الأفكار والمخططات التطبيقية والإيديولوجية النظرية فحسب. بل كل هذه وتلك ما هي إلا وسائل تعتمدها العدالة الاجتماعية لتصل إلى ذاتها الكامنة في (ما ورائيتها) – غايتها. التي هي سعادة الإنسان والمجتمع معاً.

وهنا نصل إلى سؤال كبير: ما هي هذه السعادة؟

فإننـا علـى ضـوء مـا تقـدم نـرى أن السـعادة قـد اتخـذت فـي التقيـيم الحـديث مفهومـاً مغـايراً لمفهومهـا فـي بقيـة المـــذاهب والفلســـفات الأخــــرى. هـــذه المـــذاهب والفلسـفات التـــي تحصـــرها فـــي نـــوال الراحـــة واللـــذة والعـيش الهنـيء. بينمـا نـرى أن السـعادة فـي المفهـوم (العــدل)الحــديث، قــد أصــبحت كلمـــة جامعـــة ذات مـدلول واسـع شـامل فـي نظـر الإنسـان. فهـي لديـه جهـد وعطـاء فـي عـالم المثـل والقـيم والأخـلاق. وهـي رايـة بيضـاء ترفـرف فـوق المجتمـع. وتشـدّ أفـراده بأواصـر المحبـــة والإيثـــار. وهـــي، أيضـــاً، تطلّـــع وتفاعـــل مـــع سـائر عوامـل الوجـود وعناصـر الطبيعـة. إضـافة إلـى أنهـا إرادة خلاّقـة وعقـل مبـدع. ونزعـة جامحـة نحـو الكمـال. وبالتـالي هـي استشـراف علـى هنـاءة الإنسـان فـــي عالمـــه المـــادي وعالمـــه الروحـــي معـــاً. وشـــعور مطلـق بالطمأنينـة النفسـية والفكريـة والاجتماعيـة، مـن خـــلال نضـــاله العنيـــد. وإصـــراره علـــى التقـــدم والارتقاء.

وهكـذا نجـد بونـاً شاسـعاً بـين المعنـى التقليـدي للسـعادة ومفهومهـا القـديم فـي (اللـذة)، وبـين المعنـى التقـدمي الجديـد لهـا. وفـي الحقيقـة نـرى أن التـاريخ يعلمنـا أن المجتمعـــات التـــي اتجهـــت نحـــو مفهـــوم الســـعادة إلـــى حيـــاة التـــرف والبـــذخ، قـــد تراخـــت وانهـــارت، لأنهـــا أغفلــت الجــوهر الحقيقــي للســعادة ذا الطــابع المتجــدد،

الـــذي تتحـــول الســـعادة إلـــى التطـــور المتواصـــل. أي تصـبح السـعادة كنايـة عـن جهـد مسـتمر وخلـق متـواتر مــع الـــزمن وتطلـــع لا ينتهـــي. يســـتهدف الأكمـــل فـــي الوجـــــــــــــــــــــــــــود والحيـــــــــــــــــــــــــــاة.
نعــم. هــذه هـــي الســـعادة الحيـــة التـــي تتجـــه إليهـــا الإنســـانية، بكـــل وســـائلها التـــي تســـتعملها. وهـــذه هـــي العلاقـــة الجوهريـــة مـــا بـــين الســـعادة والإنســـان، التـــي تقـــرّ بـــأن الإنســـان الســـعيد هـــو الإنســـان الحـــي الحـــرّ الخـــــــــــــــــــــــــــلاق فـــــــــــــــــــــــــــي مجتمعـــه. الـــذي يعتبـــر أن لـــه فـــي الكـــون رســـالة. ويقدّر أن الحياة مسؤولية.

****

دور ملكة الخيال في عمليات الفكر والتربية

لا يقتصر السعي وراء حقائق هذا الكون وملاحقة المعارف الموجودة فيه، على العقل وحده. بالرغم من مكانة هذه الملكة العتيدة بين ملكات النفس الإنسانية، في عالم المعرفة ككل. فهي - أي العقل - الأداة الذهنية الواعية العارفة، التي تستند في تصديها لكل ما يعترض في عملها ووظيفتها إلى التجريب والبرهنة، والتثبت والتحقق على ضوء مبادئ التنسيق وشروطه الواضحة المحددة.

قلت، لا يقتصر العمل في هذا المجال المعرفي على العقل وحده بل تشاركه فيه ملكات أخرى، لا تتظاهر مثله بل تقبع خلفه في طبقات النفس، وتمده بكل أسباب الطاقة والقدرة والعدة والمؤونة. ليبقى أكثر جاهزية في مهمته: يستنتج، يستنبط، يكتشف، يحدد إلخ... ويأتي على رأس تلك الملكات ((الخيال)).

هذه الملكة الجموح اللعوب، التي نلوذ إليها أحياناً من هموم الحياة ومتاعبها، ونحتمي بفضائها

الرحب، من الملل والنفور اللذين نصاب بهما من استعمال وظيفة العقل وتعامله معنا بقسرية الأنظمة وصرامتها. وذلك من خلال منظورها الساحر العجيب. فنعيش معها - أي ملكة الخيال - لحظات مريحة ممتعة. ليس في واقع الجمال وما فيه من روائع الفن والأدب والموسيقى فحسب، بل في هذا الواقع الفسيح، اللامحدود من عالم المعرفة المليء بالخفايا والأسرار، الزاخر بالحقائق والمعارف والتي يطل فيها علينا الخيال بظلالها المتطاولة ورسومها المشوشة. فتظهر على شكل مخايل وأساطير، تحمل لنا بذور المعرفة الأولى، والعناصر البدائية لمكونات العقل. وطبعاً ليست الأشياء المباشرة المنظورة والمحددة هي كل الأشياء في هذا الوجود. ولا الحقائق المنطقية المبرهنة - المعقولة - هي كل الحقائق فيه. ولم تأت الصورة الجميلة المبروظة على الجدار، المشرقة بألوانها إلاّ من مسودتها الخلفية العاتمة. لكل شيء في هذا العالم مسودة "نيكاتف" - خلفية - أو بلغة الفلسفة((ما ورائية)). يولد من رحمها وينبع من جوهرها. ومن ثبات وجود الجانب المقابل للأشياء كان - بالضرورة - الخيال لدى الإنسان جانباً آخر للعقل. أو إحدى دعائمه الكبرى في عالم المسودات. وهنا يفهم أن الخيال الذي نعني، ليس

هو تلك الشطحات ((الفنتزية)) المغرقة في اللاواقعية والغرائب العبثية اللامجدية. ولا هو أيضاً، هذه الحالة من الشعور السعيد الخالي الذي يصل بالإنسان إلى أقصى درجات السكون والخمود. أو إلى ما يسمى بحالة ((النيرفانا)) حيث لا تعب، لا هم، لا تفكير. بل لذة، دفء، وتحليق بعيد عن الواقع والحياة معاً. إنما نعني الخيال القابع وراء العقل وخلف الحواس كملكة غزيرة متدفقة. تشكل بهلاميتها الوسط الهيولي لليقين. أو بالأحرى المادة الخام والتي يستمد منها العقل الشعور في كل عمليات الإدراك والوعي والفهم التي يقوم بها.
وهكذا ننفذ إلى قيمة الخيال في ((عالم المعرفة)) ووظيفته العملية - لا الخيالية - في صنع الفكر وفي الحياة.
يقول أحد المربين " ينبغي أن نحلم". وعرف الحلم بأنه الحياة - بالفعل -.
كما ننفذ إلى مدى ضرورة الخيال في عمليات التربية. وضرورة تنمية تربيته لدى الناشئة ككل. ولدى الدارسين والباحثين أيضاً. في المستوى الذي لا يقل عن مستوى الاهتمام بوسائل المعرفة الأخرى.
ليصبح - أي الخيال - أداة معرفية فعالة نتمكن - عن طريق تربيته الصحيحة - أن نغرس في الذهن

الإنسـاني القـدرة علـى الخلـق والإبـداع. وبالتـالي ترسـيخ فيـه خاصـيّة الخيـال الشـهيرة. ألا وهـي ((التجـاوز)). فنسـتطيع أن نتجـاوز بـه واقعنـا الإنسـاني وتجاربنـا العقليـة المشـروطة بحـدود محرمـة، كالتـابو, إلـى تجربـة جديـدة، تجربـة الخيـال التـي ستتموضـع فـي عمليـة ((التجـاوز)) هـذه داخـل الواقـع الإنسـاني لتجعلـه مزدوجـاً ذا وجهـين: المباشـر واللامباشـر. مـن ذواتنـا الظـاهري والبـاطني. ويتمركـز الخيـال طبعـاً، فـي الوجـه الثـاني، فـي اللامباشـر. فـيكمن فـي ((مـا ورائيـة)) عـالم الـنفس ككـل عمليـة ذهنيـة أو عقليـة، التـي نعـالج بهـا الحقـائق والمعارف في هذا الكون - الوجود - .

ونـرى فـي الوقـت نفسـه مـن خـلال هـذه الماورائيـة، مسـاهمة الخيـال فـي تمكـين العوامـل الفطريـة الباطنيـة فـي الـنفس، والبيئيـة الخارجيـة فـي الوسـط. لتتناولهـا التربيـة فـي مؤسسـاتها، وتقـدمها للمجتمـع مشـفوعة بخاصـيّة ((التجـاوز)). التـي وصـلت فـي العمليـات التربويـة إلـى غايـة مهمـة مـن غاياتهـا الأساسـية. وهـي الابتعـاد بقـدر الإمكـان عـن عطالـة الأوامـر التنفيذيـة، والقوانين الجبرية، والأهداف مسبقة الصنع.

يقـول(روجيـه غـارودي): ((والفضـيلة الكبـرى التـي ينبغـي أن نعتنـي بتربيتهـا، ليسـت هـي المنطـق، بـل الخيـال. وإلاّ ارتـدت الثقافـة إلـى وظيفـة أداء عمليـات

تنفيذيـــة صـــرفة، وظيفـــة تقـــوم علـــى اعتبـــار الغايـــات معطاة سلفاً (1)))...

وبالتأكيـــد إذا مـــا تجـــاوزت التربيـــة مبـــادئ الجبريـــة والمحدوديـــة تلـــك. فنصـــل إلـــى أهـــم غـــرض مـــن أغراضـــها المنشـــودة، ألا وهـــو اكتســـاب الإنســـان القـــدرة علـــى التكيّـــف. التكيّـــف مـــع الظـــروف الطارئـــة والعوامـــل البيئيـــة المحيطـــة. وقـــدرة التكيـــف فـــي الوســـط هـــذه هـــي بحـــد ذاتهـــا خاصـــيّة مكتســـبة فـــي الكـــائن البشـــري، تفـــوق ((الضـــرورة)) نفســـها وتتجاوزهـــا. وذلـــك بوســـاطة مـــا يولـــده الخيـــال فـــي الـــذهن مـــن حـــدس ((للممكن)).

والحـــدس هـــذا يتفـــق أو يـــتلاءم فـــي طبيعتـــه، ســـنة التطـــور والتجديـــد الســـائدة فـــي الوجـــود، ومـــن هـــذا القبيـــل جـــاءت موضـــوعة ((الاكتســـاب فـــي التربيـــة)) معمـــولاً بهـــا ومركـــزاً عليهـــا فـــي أســـاليبها ووســـائلها لتنفـــذ منهـــا إلـــى المجتمـــع. وحتـــى إلـــى علـــم الحيـــاة ((البيولوجيـــا))وتـــدل الدراســـات العلميـــة الحديثـــة، علـــى أن ســـلوك المخلوقـــات المكتســـب يتزايـــد علـــى حســـاب سلوكها الموروث، كلما ارتفعت في سلم التطور.

أي أن الســـلوك المـــوروث يكـــون فـــي تنـــاقص مســـتمر مـــع التطـــور. وبـــالطبع قـــدرة (الاكتســـاب أو التكيّـــف) هـــذه، هـــي التـــي يعـــود فضـــلها إلـــى الخيـــال، أصـــبحت فـــي العصـــر الحاضـــر الهـــاجس الكبيـــر للتربيـــة. فراحـــت

مؤسساتها في العالم أجمع تهتم أكثر فأكثر بعالم الطفولة القريب من ((عالم الخيال)). فركزت على مرحلتها، وعملت على تحديد عمرها من أجل أن تجعلها مرحلة سعيدة في عمر الفرد والمجتمع. وخصبة أيضاً لتفتح المواهب الذاتية، وتقوي روح الشخصية الفردية ليكون الفرد فعالاً أصيلاً في مجتمعه، ويكون هذا المجتمع قوياً وفعالاً بأفراده، زخماً زاخراً بعطائه. والطفولة من جانبها هي الميدان الفسيح للخيال. ففيها سيقيم الخيال مهرجاناته البديعة للعب. حيث ينمي الأطفال فيها شخصياتهم، يتدربون على حيواتهم القادمة.وهنا يبرز دور الخيال جلياً في تكوين المثل العليا للحياة وتزيين هذه المثل بأجمل الصور وأكمل المعاني، التي تنشد إليها وتسعى من أجل تحقيقها. والتربية تدعم هذا الاتجاه بوسائلها الناجعة، وتربط ما بين ((المثل الأعلى)) والواقع، بمزاوجة ثرّة خصبة تدفع الفرد ليزاوج ما بين صبوته وطموحه إلى القيم والمثل وما بين الواقع. وإذا ما تجاوزنا - في العمر – مرحلة الطفولة الممرعة اللصيقة بالخيال ، ودخلنا إلى مرحلة النضوج - مرحلة العلم والعقل - فنرى للخيال الدور الهام أيضاً. وذلك عن طريق ((الحدس)) فالحدس هذا النوع الراقي والمتقدم من ملكة الخيال لدى الفرد، والذي فرض نفسه

كموضوعة تربوية في المناهج المدرسية والعمليات الفكرية، أصبح اليوم مطروحاً كموضوعة أساسية في الساحة العلمية وبوساطته صرنا نرى تراخصاً وتساهلاً. بل مرونة في تعاملنا مع المبادئ العلمية المبنية على الجبرية والحتمية القانونية.

وحصل انفراج في تحديداتها وشروطها. الأمر الذي ساعد على ترويج مفاهيم ((النسبية)) وربط الإنسان بالكون بمتصل كوني أو وعي كوني.

فراح العلماء يتخيلون في الحدس العلمي كما يفكرون في التجارب الوضعية، ويستنبطون الحقائق والمعارف العلمية الحديثة على ضوئه. والحدس هذا، بوصفه شكلاً من أشكال المعرفة أو بالأحرى من وسائلها وأدواتها، أصبح يتقدم ويتطور في وظيفته ومساهمته حتى أصبح في هذه المكانة الهامة في العصر الحاضر، من التربية والمعرفة والاكتشاف.

ولنصغ إلى ((لويس دوبرويل)) صاحب النظرية المشهورة في الميكانيك التموجي - (الكوانتا)- التي تضارع نظرية ((أينشتاين)) في النسبية، يقول: ((الرموز الرياضية الشيء الوحيد الذي يعبر بدقة عن العلاقات بين ظواهر الطبيعة. ولكن يجب ألا تمتص هذه الحتمية المنطقية الطبيعة الحدسية الفيزيائية.. فالحدس والخيال هما وحدهما يقدران

علـــى تحطـــيم هـــذا الإطـــار - آليـــة الأســـباب والنتـــائج للشكلية.. الرياضية)).(2)
ويتـــابع دوبرويـــل نفســـه:((فالخيـــال يســـاعد علـــى تمثـــل جـــزء مـــن الطبيعـــة الفيزيائيـــة بلمحـــة واحـــدة. وعـــن طريـــق صـــورة تبـــرز بوضـــوح معـــالم ارتبـــاط ذلـــك الجـــزء. والحـــدس يجعلنـــا نتنبـــأ بجانـــب مـــن الواقـــع فجـــأة وبنـــوع مـــن الاستبصـــار البـــاطني، هاتـــان الموهبتـــان "الحـــدس والخيـــال"، إمكانيتـــان تخصـــان العقـــل البشـــري بشـــكل خـــاص وقـــد لعبتـــا وتلعبـــان دوراً أساسياً في تشييد صرح العلم)). (3)
ونـــراه يســـتطرد أيضـــاً: ((الاســـتقراء القـــائم علـــى الخيـــال والحـــدس، هـــو وحـــده الـــذي يفســـح المجـــال لانتصـــارات الفكـــر الكبـــرى لأنـــه يحطـــم بقفـــزات لا عقليـــة.. تلـــك الحلقـــة الصـــلبة التـــي يكبلنـــا بهـــا التفكيـــر الاستنباطي - المنطقي)). (4)
وبهـــذه الميـــزة الاســـتقرائية التـــي تعـــود بأصـــلها إلـــى الخيـــال والحـــدس يســـمو الفكـــر الإنســـاني علـــى كـــل الآلات الصـــماء: ((لأن الفكـــر الإنســـاني يســـمو - بالاســـتقراء - علـــى كـــل الآلات نهائيـــاً، التـــي تفوقـــه فـــي الحســـاب والتصـــنيف إلاّ أنهـــا لا تســـتطيع أن تتخيـــل وتحدس)). (5)
إذن تفـــوق عليهـــا الفكـــر الإنســـاني بالخيـــال والحـــدس.
يقول هربرت ماركيوز:

((فالحدس ليس ملكة غامضة من ملكات الفكر ولا تجربة غريبة، وليس مفصولاً عن التحليل المفهومي. بل هو النتيجة الأولى لهذا التحليل)). (6)

حتى ((لينين)) يؤكد في (دفاتره الفلسفية) هذه المقولة، فيقول: ((فلا يعقل إنكار دور الخيال في أكثر العلوم صرامةً)). وهكذا نرى الخيال قد دخل عالم المعرفة وأصبح يعالج موضوع الفكر - في الخيال - بصيغة احتمالية أو تناحرية على حد تعبير هربرت ماركيوز نفسه: ((يظهر موضوع الفكر فيه (في الخيال - الحدس) كأنه كائن فعلاً، أو كأنه على صلة تناحرية بوضعه الاحتمالي المباشر)). (7)

ونرى هذا المفهوم الاحتمالي - الخيالي الحدسي - يتفق مع منهج التربية الأصلية، التي تعتمد بموجبه على انفتاح التعليم في نفس الفرد وعلى ترسيخ قابلية التعليم لا التعلّم ذاته. وذلك وفقاً لهذه المقولة القديمة الحديثة التي قالها (جان جاك روسو) منذ قرنين: ((إننا لا نريد أن نخلق إنساناً متعلماً ولكننا نريد أن نخلق إنساناً قابلاً للتعليم)) وهذا المفهوم الرائج في التربية الحديثة اليوم، يجعلها تركز على احترام الإنسان و إعطائه الحرية لاستعمال قدراته ومواهبه وملكات نفسه كافة.

قـــال قـــديماً ((ســـنيكا)) الرومـــاني: لســـنا أمـــام قربـــة نملؤهـــا - ويعنـــي الإنســـان - وإنمـــا أمـــام موقـــد ، علينـــا أن نلهبه).

وهكـــذا تصـــبح التربيـــة أداة بيـــد الفـــرد، لا الفـــرد أداة بيدها. وطبعاً البون شاسع بين المبدأين.

وبهـــذا الأســـلوب التربـــوي، تصـــبح المعـــارف بيـــد الإنســـان، لا الإنســـان بيـــد المعـــارف. كـــل ذلـــك وفـــق مبـــدأ ((الاحتمـــال)) الـــذي زودنـــا بـــه الخيـــال وحدســـه الفعال، وأورث فينا هذا التقدم العصري العجيب.

****

الحواشي:

(1) كتاب المنعطف الكبير ص 7 لـ ((روجيه غارودي)).

(2) كتـــاب لـــويس دوبرويـــل و الميكابيـــك التمـــوجي ص ن للكاتبة (ماري 010 توتيلا).

(3) المصدر الذي قبله ص 51

(4) المصدر الذي قبله ص 51

(5) المصدر الذي قبله ص 5

(6) كتـــاب الإنســـان ذو البعـــد الواحـــد ص 100 لـــ ((هربـــرت ماركيوز))

(7) كتـــاب الإنســـان ذو البعـــد الواحـــد ص 151 لـــ ((هربـــرت ماركيوز))

التربية بين التطبيق العملي والتنظير المبدئي

مما لا شك فيه أن التربية هي صناعة كل الصناعات، وعلم كل العلوم، فالذين يعملون في كل الحرف والمهن، وفي جميع مجالات الحياة المختلفة، لا بد أنهم عبروا الدنيا من بوابة التربية الكبيرة العريضة، فهي تدخل في كل شيء، ولها طرف في كل علم، لهذا نجدها تأخذ اهتماماً كبيراً من قبل الباحثين والمختصين. حتى أصبحت علماً قائماً بذاته، له مقوماته الأساسية وأصوله المستقلة الخاصة.

ونظراً لطبيعة العمل التربوي، نرى أن هذا العلم قد اتسع وتطور، فتعددت فيه المذاهب وتشعبت الآراء، وكثرت الطرق، وتنافست المدارس، وسائر الوسائل المتبعة في التطبيق، حتى غدت التربية كالبحر المتموج، الزاخر بالكنوز الثمينة، يتهيب الواقف أمامه من الغوص في لجج مياهه للحصول عليها، لهذا ليس من السهولة بمكان القيام بدراسة التربية والخوض في معركتها، وهي معروفة من الدراسات الصعبة الشاقة لدى المطلعين، وهل هناك صناعة أصعب من صناعة الإنسان؟؟..

لـذا يتوجـب علينـا أن نعتـرف بالفضـل والجميـل لكثيـر مـن المغـامرين الأشـداء الـذين جـردوا أنفسـهم لخـوض بحـر التربيـة المـتلاطم. وسـبروا أعماقـه، ونجحـوا فـي الكشف عن لآلئه. وأتحفونا بها.

فقـدموها لنـا كـزاد سـمين قـيم مـن الدراسـات والبحـوث، التـي تعـالج مختلـف جوانـب الحيـاة، وقضـايا الإنسـان التربويـة. وهنـاك سـجل حافـل بأسـماء البـاحثين والدارسـين والـرواد المـربين الأوائل...

وعلـى كـل، مهمـا يكـن مـن أمـر، فـي تعـدد المفـاهيم والوسـائل التربويـة فتبقـى كلهـا تنطلـق بجوهرهـا مـن مبـدأين اثنـين هـامين، همـا: المبـدأ الفلسـفي((النظـري)) والمبـدأ العملـي((التطبيقـي)) وهـذان المظهـران متصـلان ومتلازمـان تلازمـاً وثيقـاً بفعـل قاعـدة علميـة جدليـة، فـالتواتر موجـود بتفاعلـه المتبـادل بـين المثـال والواقـع، بـل بـين كـل نقيضـين مـن أشـياء هـذا العـالم الماديـة والمعنويـة، الواقعيـة والنظريـة العلميـة والفكريـة، لأن الحيـاة والأشـياء لا تعـيش ولا تعـرف الكينونـة إلا فـي هـذه الثنائيـة المتفاعلة المتكاملة الخلاقة.

إذن، فـالطرق والوسـائل العمليـة تتطلـب مبـادئ عامـة نظريـة أي لا بـد لهـا مـن منطلقـات تنظيـر. أو خلفيـة فلسـفية، ومـن هنـا وجـب الاهتمـام بالـذات

التربـوي المـوروث عـن الأجيـال السـابقة لنضـعه علـى مشــرحة الــدرس والبحــث، فننتقــي منــه مجموعــة الصــيغ والمقــولات النظريــة لتكــون أساســاً لتكــوين وسـائل تقنيـة تطبيقيـة تربويـة، أي أن نطعمهـا بمفـاهيم جديــدة مســتمدة مــن روح العصــر الحاضــر، ومــن معطيــات الواقــع التربــوي المتطــور بتطــور الواقــع الحضاري.

وننفــي، فــي الوقــت نفســه، مــن هــذا التــراث المتناقـل، كـل تقليـد أعمـى، بـل نلحـظ فيـه دومـاً صـيغ التغييـر والتجديـد، علـى ضـوء المـردود النـاتج عـن التطبيــق العملــي. والاحتكــاك بــالواقع المــادي ومعطيـات الوسـائل التكنولوجيـة الحديثـة، التـي هـي سمة كبرى من سمات عصرنا هذا.

وهـذه القاعـدة يجـب أن تطبـق فـي التربيـة بحـزم وصـرامة. فمـثلاً يجـب ألا نسـلم فـوراً مـع مـن ينـادي بمــذهب التعلــيم الحــر. أو نوافــق أصــحاب مدرســة التعلـيم الممنطـق، الـذي يقـوم علـى نقـاط مبدئيـة فـي التعلـيم يرسـلها المعلـم إلـى تلاميـذه، علـى شـكل خطـب جوفـاء أو كمعـادلات رياضـية جامـدة لا تعـيش إلا فـي تجريـد العقـل وحـده أو تكـون مـع مـا يعـرف بـالتعليم السـلطوي الـذي يعتمـد علـى طـرف واحـد فـي المعادلـة التربويـة، ويتبـع أسـلوب تخـزين المعلومـات فـي ذهـن الطــلاب بــالقوة، ويجعلهــم بعيــدين عــن الواقــع الــذي

يعيشون فيه. فحتماً هذا الأسلوب يميت لديهم كل ما ينبعث في نفوسهم من ملاحظات خلاقة، ومشاهدات حية مستمدة من البيئة والوسط المحيطين. فالطالب ينصرف لجهود ذهنية مرهفة تجعل المعلومات والمعارف المخزنة كفسيفساء فكرية محفوظة في متحف.

أجل، يجب أن نبتعد في التربية عن كل الوسائل التي تجعل معرفة المحصلات مشبعة كاملة، ولا نكتفي إلا بنثار من المعلومات والمعارف الخفيفة اللطيفة المستمدة غالباً من عمليات طرح الأسئلة على الواقع المعيش, ومن الأمثلة المستقاة، وتزويد الوقائع الدرسية التعليمية بها. وهذا طبعاً لا يكون إلا بإشاعة روح الحرية والديمقراطية في مجالات التربية. واعتماد المنافسة الجماعية البريئة المثمرة بين الطلاب، من خلال الممارسة، وجعل وسائل التعليم حية مرحة سهلة على الجانبين المفيد والمستفيد، وإقامة علاقات حوار بناءة بين المعلم والطالب. تجعل هذا الأخير مشدوداً لدروسه، ويشارك فيها مشاركة فعلية عملية، لا تقل عن مشاركة المعلم نفسه، وحتماً هذه المشاركة الفعالة تجعل الطالب يشعر بروح المسؤولية والطمأنينة معاً. وهنا نتمكن أن نحرك لديه عاملاً هاماً، وهو العامل النفسي((

السيكولوجي)) حيث تشيع فيه الحيوية والفرح، ويندفع أكثر في اتجاه الأغراض التربوية المنشودة وبناء الشخصية الإنسانية المستقبلية. وبعد طرح المعلومات التي تحصلت من قبل المعلم والطلاب معاً، في الدرس. يجب ألا ننسى التطبيقات العملية لها ويقوم بها أولاً المعلم نفسه، فالتربية الصحيحة تفرض على المربي أن يطبق بنفسه ما يطلبه من تلاميذه، فيقول المربي المعروف((مونتين)) في هذا الصدد ((أجر أمام التلميذ تستطع أن تحكم في قدرته على الجري، وتقدر في نقطة من الشوط ما يجب أن تنتقص من قدرتك على الجري لتتعود مماشاة تلميذك)).

وهناك عامل تربوي هام أيضاً يجب التنويه به، في هذا المضمار وهو ضرورة دعوة الحواس للمشاركة في التطبيق التربوي واستخدامها كوسيلة ناجحة لذلك. ولا سيما إشغالها في المراحل التعليمية الأولى.

هذا إلى جانب استخدام بقية الروافد العملية الأخرى فيما بعد. وأخص بالذكر منها الاستفادة من كتب المطالعة. وتعتبر هذه الوسيلة الناجحة من أرقى وسائل التربية العصرية. أثبتت التجربة فائدتها وفعاليتها في توسيع مدارك الطلاب. وتعبئتهم وترسيخ المعلومات المطلوبة في أذهانهم،

فالطالـــب يقبـــل علـــى كتـــاب المطالعـــة بمـــلء رغبتـــه وحريتـــه كأنـــه يقبـل بشـغف لسـماع معزوفـة موسـيقية يحبهـا. فالإدمـان علـى المطالعـة والإقبـال علـى الكتـب الجيـدة يعتبـران مـن الوسـائل التربويـة الفعالـة. يقـول المربـــي البحاثـــة ((غاســـتون ميالاريـــه)) بهـــذا الخصـــوص ((المعلـــم الـــذي لا يعـــوّد تلامذتـــه، كيـــف يسـتعملون الكتـب بـذكاء وإدراك، والـذي لا يوصـيهم بصـحبة مكتبـات المطالعـة، فهـو معلـم يوشـك علـى الإفلاس مربياً)).

وفـــي الأخيـــر يجـــب ألا نغفـــل فائـــدة اســـتعمال وسـائل الإيضـاح المتطـورة التـي تعتمـد علـى الآلات التكنولوجيـــة التربويـــة الحديثـــة، ولكـــن يجـــب أن نسـتعملها بالقـدر المعتـدل حتـى لا نقـع فـي طغيـان (مطـبَّ) آليـة الآلـة علـى إنسـانية التربيـة، وتجعـل التربيـة نفسـها محـض وسـيلة ميكانيكيـة صـماء. مثـل آلـــة الكمبيـــوتر التـــي تســـتوعب المعلومـــات دون أن تفقههـا، فالتربيـة خلقـت مـن أجـل الإنسـان، ويجـب أن تبقى للإنسان...

حول تطور تعليم المرأة في سورية

إنه لمن المعروف في التاريخ، إن المرأة قد حازت على مكانة سامية، في المجتمع العربي، منذ القديم، لا تقل عن مكانة الرجل فيه، في بعض الحقب. ففي العصور الجاهلية تغنى بالمرأة الشعراء، وتكنى بها الأبطال، وانتسب إليها الأمراء والملوك. وفي العصر الإسلامي يكفى أن نشير إلى ما جاء في القرآن الكريم، والحديث الشريف، عن إنصاف المرأة وحفظ حقوقها، ومنحها كل الفرص لممارسة دورها في المجتمع، وتحمّل مسؤوليتها وأداء رسالتها فيه. يكفي ذلك أن نشير إليه، ليكون وضع المرأة العربية قدوة لجميع الأمم والمجتمعات في العالم.

ومن ثم تتالت العهود، وحلت النكبات على الأمة العربية، وتصدت المرأة كالرجل، لكل التحديات، التي طرأت، وفي العصر الحديث قامت المرأة تساعد الرجل في الكفاح والنضال من أجل تحرير الأراضي العربية، وتساعده في العمل والإنتاج، وتؤدي واجباتها تجاه الأسرة وتربية الأولاد.

وفي أثناء الاحتلال العثماني ساد الوطن العربي النظام الإقطاعي، الذي جاء به هذا الحكم، وتمركز

بصورة خاصة في القطر العربي السوري. فساد في مجتمعنا السوري التخلف والجهل، ولا سيما في الريف، ولقد أصابت ويلات الحكم العثماني ومحن نظامه الإقطاعي، المرأة بصورة خاصة ما أصابت. ونالت منه ما نالت من المعاناة والتقهقر ومع هذا تحلّت بالصبر وامتازت بالجلد وقوة الإرادة.

وظلت في عهد الانتداب الفرنسي على وضعها، لأن الاستعمار واحد، وكعادته، لا يريد أن تبقى الشعوب الخاضعة له إلا غارقة في الأمية والجهل والتخلف، وزاد الطين بلة، في أمر المرأة السورية، أن العادات والتقاليد والفقر السائدة ساعدت كل هذه العوامل على عدم تشجيع تعليم المرأة، وإفساح المجال أمامها لتعليمها وتثقيفها. وبعد الاستقلال الوطني، تحسنت أحوال المرأة نسبياً، وازدادت أعداد المتعلمين من الذكور والمتعلمات من الإناث، ففي آخر عام للانتداب، وهو العام الدراسي (1944- 1945). كان الموقف الإحصائي للتعليم كما يلي:

بلغ عدد الطلاب والطالبات العام (85540). من هذا العدد / 21785/ طالبة والباقي، هم من الذكور. فتكون نسبة الإناث للذكور، في التعليم، تساوي (25.4%) هذا عدا طلاب وطالبات

المدارس الخاصة والأهلية، التي كانت موجودة آنذاك، والتي لم تدخل ضمن الإحصاءات الرسمية. كما تقول السيدة نبيلة الرزاز، في كتابها الوثائقي الهام المسمى ((مشاركة المرأة في الحياة العامة في سورية)).

وكانت النسبة الكبيرة من الطالبات تتمركز في المدن السورية. حيث بلغ عدد طالبات مدارس الإناث فيها / 16879/ طالبة. بينما بلغ عدد طالبات مدارس الإناث في الريف / 4906/ طالبات. وهذا الفارق الكبير بين أرقام المدن وأرقام الريف، يعود إلى أسباب عديدة منها الفقر والجهل المسيطران على الفلاحين - سكان الأرياف - ووجود النظام الإقطاعي في المجتمع الريفي وما يفرضه من خدمات يقدمها الفلاحون وبناتهم وزوجاتهم إلى الملاك أصحاب الأراضي والأطيان. وهناك عادة الزواج المبكر للمرأة المتفشية في الريف، بسبب طمع ((الأهل)) بالمهر نظراً لفقرهم. وهناك حرص الجهات الاستعمارية على تقليل المدارس بالريف رغبة في سياسة التجهيل للفلاحين لتؤمن العمال والأقنان لكبار الملاك المرتبطين بها.

هذا ويجب أن نعلم أن معظم الطلاب والطالبات الذين أتينا على ذكر أعدادهم، من المنتسبين

لمرحلـة التعلـيم الابتـدائي. حيـث لـم يبلـغ عـدد طـلاب وطالبــات المــرحلتين الإعداديــة والثانويــة مــن المجمـوع العـام سـوى (6047) طالبـاً وطالبـة، وأمـا عــدد الطالبــات فــي هــاتين المــرحلتين - الإعداديــة والثانويــة - فقــد بلــغ / 1490/ طالبــة فقــط. مــنهن / 815/ طالبــة فــي المرحلــة الثانويــة فــي كــل القطــر. وأمـا فـي الجامعـة، فقـد بلـغ عـدد الطالبـات المنتسـبات إليهـا إحـدى عشـرة طالبـة مـنهن ثـلاث طالبـات فـي كلية الطب، وثماني طالبات في كلية الحقوق.

غيـر أنـه اختلفـت الحـال، نسـبياً، فـي العهـد الـوطني، حيـث تقـدم التعلـيم فيـه، بصـورة عامـة، فـازداد عـدد المـدارس، وصـدر قـانون التعلـيم الإلزامـي للجنسـين. ولكــن ظلــت المــرأة تخضــع للضــغوط الاجتماعيــة الموروثــة مــن النظــام الإقطــاعي، والتقاليـد القديمــة. وبقيـت الأميّـة تسـيطر علـى أعـداد النسـاء الهائلـة، ولا سيما فـي الريـف. ومـا كـان قـانون التعلـيم الإلزامـي إلا حبـراً علـى ورق، وظـل عامـل التمييـز فـي التعلـيم بـين الـذكر والأنثــى، يلعـب دوره، عمــلاً بالقاعـدة المتبعـة فـي بلـدان العـالم الثالـث، الـذي يصـل فـي بعضـها إلـى نسـبة (⅓) بـين الأنثـى والـذكر، رغـم مـا بذلتـه منظمـة اليونسـكو مـن جهـود للتقليـل مـن فـروق هـذا التمييـز، ورغـم مـا جـاء فـي بيـان حقـوق الإنسـان، بـأن التعلـيم هو حق لكل إنسان.

واستمرت المرأة في القطر العربي السوري تعاني في وضعها التعليمي، من هذه الآثار المتخلفة، في عهد الاستقلال، حوالي عشرين سنة. ولكن يعد تفجير ثورة الثامن من آذار، التي فجرها حزب البعث العربي الاشتراكي وجماهير الشعب الكادحة. تطور هذا الوضع لصالح المرأة، وازداد عدد المتعلمات ، وارتفعت أرقام النسب بين الجنسين. فركز الحزب على معاملة المرأة كالرجل سواء بسواء. واعتبرها عنصراً فعالاً و إيجابياً في المجتمع العربي. فأزال كل آثار الاستلاب والأنظمة الاستغلالية التسلطية السابقة التي كانت سائدة، وأعاد إلى الإنسان العربي، ككل، - المرأة والرجل معاً - جوهره ومعناه الأصليين. جاء في المنطلقات النظرية الصادرة عن المؤتمر القومي السادس للحزب عام /1963/، مايلي: ((نريد للمواطن تربية اشتراكية علمية تعتقه من كافة الأطر والتقاليد الاجتماعية الموروثة والمتأخرة)).

ومن هنا قام الحزب بالنهوض بالمرأة التي تشكل نصف المجتمع، وفسح المجال أمامها للمشاركة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي مرحلة التحويل الاشتراكي. وفتح الباب لها واسعاً لأن تتعلم وتسهم في تربية الجيل العربي الجديد، في البيت والمدرسة، وتغرس فيه الإيمان والروح

القوميـــة والاشـــتراكية. وبالتـــالي تعمـــل علـــى بنـــاء حضـــارة عربيـــة ودولـــة عربيـــة واحـــدة ذات مجتمـــع اشـــتراكي موحـــد. فجـــاء فـــي المنطلقـــات نفســـها((أن الحـــزب والســـلطة الثوريـــة يجـــب أن يعمـــلا علـــى مكافحـــة العقليـــة الســـلبية تجـــاه المـــرأة، وأن يعمـــلا لتصـــفية آثـــار الأفكـــار الرجعيـــة، وإن يحـــول هـــذا الكفـــاح إلـــى أسـلوب عملـــي تطبيقـــي يتـــيح لهـــا الإســـهام الفعّـــال فـــي الحيـــاة العامـــة وفـــي النضـــال. هـــذا الإســـهام الفعلـــي هـــو الـــذي يرفـــع كـــل القيـــود التـــي تمنـــع تطـــور المـــرأة، وتفـــتح شخصـــيتها الإنســـانية إلا أن الحـــزب والســـلطة الثوريـــة مطالبـــان فـــي نفـــس الوقـــت، بـــالوقوف فـــي وجـــه المفـــاهيم الســـطحية الشـــكلية، البورجوازيـــة لتحريـــر المـــرأة، المنافيـــة للجوانـــب الإيجابيـــة فـــي التقاليـــد العربيـــة، والمعرقلـــة فـــي الوقـــت نفســـه لقضـــية البناء الاشتراكي)).

وعلـــى الصـــعيد الـــواقعي - العلمـــي. نـــرى أنـــه بعـــد أن حكـــم الحـــزب، تطـــور وضـــع المـــرأة التعليمـــي، وزاد وعـــي المـــواطنين، وتضـــاءلت التقاليـــد الجامـــدة، التـــي تحـــد مـــن تعلـــيم المـــرأة بصـــورة خاصـــة، وصـــار كـــل أب يرســـل بناتـــه إلـــى المـــدارس ســـواء أكانـــت فـــي قريتـــه أو فـــي المدينـــة المجـــاورة ولا ســـيما بعـــد أن عملـــت الثـــورة علـــى تقـــدم طـــرق المواصـــلات وتســـهيلها، وعلـــى إدخـــال المكننـــة إلـــى الريـــف و ((

تأليـل)) الزراعــة فيـه. وهكـذا أصـبح للمـرأة وقـت للانصــراف إلــى المــدارس ولتلقــي التعلــيم فيهــا. فـازدادت نسـبة تعلـيم المـرأة بصـورة ملحوظـة. فمـثلاً كــان الموقــف الإحصــائي العــام فــي أوائــل العهــد الــوطني. فــي العــام الدراســي (1949 - 1950)، يشــير إلــى أن مجمــوع الطالبــات فــي القطــر (65995) طالبـة. وفـي أواسـط العهـد الـوطني. أي فـي العــام الدراســي (1954 - 1955) أصــبح المجمــوع العــام للطالبــات (109871) طالبــة، وفــي أواخــر هـــذا العهـــد، فـــي عـــام (1961 - 1962) بلـــغ مجمــوعهن (121532) طالبــة. أمــا فــي أوائــل عهـد الحـزب، فــي العــام الدراســي (1964 - 1965) ارتفــع مجمــوع الطالبــات إلــى (206911) طالبــة، ثــم وصــل فــي العــام الدراســي (1969 - 1970) إلــــــــــى (296747) طالبــــــــــــة. وفــي العــام (1973 - 1974)ن صــعد الــرقم إلــى (452742) طالبــة. ونجــد أن فــروق النســب بــين الجنسـين فـي التعلـيم قـد ذابـت تقريبـاً. كمـا نلاحـظ أن نسـبة تعلـيم المـرأة الريفيـة قـد ازدادت. فكانـت نسـبة تعلـيم المــرأة فــي الريــف عــام 1945 هــي 20.3% وصــلت فــي عــام 1964 إلــى 44.5%، وفــي عــام 1971 بلغت 46.4%.

ملاحظة: استقيت الأرقام الإحصائية من كتاب السيدة نبيلة الرزاز المشار إليه في المقال، ومن إحصاءات مديرية التخطيط والمتابعة والإحصاء في وزارة التربية التي قام بإعدادها الأستاذ محمد عبد الله.

****

الفن في رسالته التربوية الاجتماعية

اعتقد جازماً أن كلمة "الفن للفن" أصبحت، في هذه الأيام في عداد الكلمات المحنطة مع مخلفات اللغة التي لا دور لها في الحياة العملية "الواقعية" البتة. إنما ينحصر وجودها كدليل لتاريخ تطور معاني الكلمات، وتوضيح التغيير الذي يطرأ على عموم المداليل والمفاهيم، عبر مراحل الزمن لهذا خسر "كروتشه" الرهان في مفهومه عن الفن عندما قال: ((إن الفن يقصد ذاته في ذاته. لا يخضع لأي من القيم الأخلاقية أو الاجتماعية السائدة)).

واعتقد جازماً أيضاً، أن الفن، هو للمجتمع، للشعب، للحياة، هذا هو المفهوم الصحيح الذي يدل عن حقيقة وجود الفن، في مضمونه وشكله، في غايته وهدفه، في رسالته وخدمته، قال غوستاف كوربيه: ((لم يكن هدفي الوصول إلى أن الفن للفن أبداً.. كلا.. ولا أن أكون فناناً مصوراً فقط، إنما إنسان.. وبكلمة واحدة أن أعمل فناً حياً.. هكذا كان هدفي)).

إذن الفن لا ينفصل عن الواقع، وله دور أساسي في بنائه وتطويره، والفنان الحق هو ابن أمته، الذي يستمد فنه من ميدان حياتها التاريخية والاجتماعية

والثقافيـــة والماديـــة. ويصـــوغه لهـــا بنفســـه الشـــفافة، وشـــعوره المرهـــف، وريشـــته المبدعـــة الخلاقـــة، فيســكب قضـــايا الحيـــاة، ومفـــاهيم الوجـــود، ومعـــاني القـــيم والأخـــلاق، والســـلوك والتربيـــة، وســـائر التطلعـــات المنشـــودة فـــي الرقـــي والتقـــدم. (يســـكبها ذوبـــاً مـــن روحـــه وعصـــراً مـــن وجدانـــه)، عـــرائس خيـال مبدعــة، وآيــات جمــال رائعــة. لوحــات يصــور فـــي ألوانهـــا وأضـــوائها وأصـــباغها، وكتـــل مادتهـــا، الهمـوم وجبـال المتاعـب فـي أمتـه، كأنهـا زائلـة، بفعـل الإنسـان وتفاؤلـه العظـيم مجسـداً فيهـا دأبـه العنيـد، فـي تحـــدي الصـــعاب، وقهـــر المســـتحيل، واســـتعذاب الصراع في الحياة. في الوجود.

فالفنــان الحــق هــو الــذي يكــرس فــي فنــه حــب هــذا القـــانون التـــاريخي الخالـــد.. قـــانون صـــراع الثنائيـــة، الــذي انبثــق عنــه ذلــك المبــدأ الجــدلي (الــديالكتيكي). ومــا تمخــض عنــه مــن ميكانيكيــة فــي تغييــر وتحويــل تركيبــات المجتمــع وتطــورات الحيــاة وســيرورة الكــون والمادة معاً قال بيير فرانكاستل:

((فــي الفــن واحــدة مــن لحظــات خلــق الإنســان خلقــاً مســتمراً لذاتـــه. خلقـــاً لواقـــع جديـــد ولقـــيم جديـــدة. لـــذا يــرفض أن تكــون وظيفــة الفــن مســخاً لواقــع ســابق الوجـــود.. بـــل لحظـــة جدليـــة ضـــرورية فـــي بنيـــة المجتمع البشري، وهو يصوغ صفحة وجهه)).

فالفنـــان مقحـــم بالضـــرورة فـــي هـــذا المعتـــرك. والفـــن الـــذي ينـــتج عنـــه رســـالة اجتماعيـــة تربويـــة تـــؤدي غايتهـــا مـــن أجـــل الحيـــاة والمجتمـــع, لا بـــد أن تكـــون بـــالطبع متشـــعبة واســـعة الأرجـــاء تـــدخل فـــي ســـائر صـــنوف الحضـــارة البشـــرية.لهـــذا نـــرى مـــن خلالهـــا فعاليـــة الفـــن وقـــوة إيجابيتـــه، ووفـــرة مـــردوده وأثـــره فـــي كـــل مـــا ولجـــه الإنســـان وطـــرق بابـــه، ســـواء أكـــان فـــي الطبيعـــة أو الفكـــر, فـــي العقـــل أو الخيـــال, فـــي الـــتفس أو الـــروح الـــخ. قـــال أرســـطو قـــديماً: ((ومـــا الفـــن إلا بعـــض ملكـــة إنتاجيـــة يوجههـــا العقـــل الحـــق)). قـــال هيجـــل حـــديثاً: ((بـــالفن أحـــرز الإنســـان أول انتصـــار علـــى المـــادة، قبـــل أن ينتصـــر عليهـــا انتصـــاراً كليـــاً بـــالعلم)). وأمـــا (هوبســـمان) فقـــد قـــال: ((إذا صـــح أن العلـــم هـــو اكتشـــاف نظـــام كـــوني عـــام، وضـــروري بوســـاطة القيـــاس. فمـــا الفـــن، هـــذا الإنســـان المضـــاف إلـــى الطبيعـــة هـــذا التســـامي بالواقعيـــة اليوميـــة، إلا اقتلاعاً من المادية إلى الخارج..)).

فـالفن هـو بجـوهره اكتشـاف وجهـد وفكـر، إلـى جانـب كونـه إبـداعاً وخلقـاً وخيـرا وجمـالا. فهـو يجمـع بـين وحـدة الفكـر والطبيعـة، كمـا يقـول شـبلنغ الألمـاني؛ وهـو يجمـع بـين وحـدة الخيـال والعقـل. ففيـه نتـذكر مثلنـا ونتصـور نماذجنـا وانسـجامنا، وفيـه نكتشـف السـمو الكـامن فـي أعمـاق وجودنـا، وهـو كـل

الكمالات المشفوعة بها قوانا الروحية والنفسية والجسدية - المادية - . إنه بمثابة المركز الهندسي لجميع القيم التي يهدف بها الإنسان نحو الخير والجمال والحق.

وبهذا المفهوم المشبع بالسمو والتجريد والعمل والعاطفة يمثل الفن، كما أسلفت، مكانته الاجتماعية في الأمة. ويأخذ قسطه الأوفى في رسالة التربية فيها.

فهو أفضل الأدوات التي يتربى (يتعلم) الإنسان بواسطتها كيف يضاف إلى الطبيعة وكيف تصبح هذه الطبيعة امتداداً له، ويقلب جفافها ووحشيتها إلى حضارة ورقة وجمال. ويجعل الحياة، بالتالي فيها، تمور بالتطور والخلق والابتكار. قال غوته: ((على الفنان أن يؤسس في الطبيعة ملكوته الخاص به خالقاً منها طبيعة ثانية)).

ولا يغرب عن بالنا أن السمو الفني ليس عبارة عن لذات وعواطف فحسب. بل أنه جهد نفسي وفكري وعقلي معاً. قال تولستوي: ((ليس الفن متاعاً، أو لذة، أو ألهية. بل الفن عضو حياتي في الإنسانية ينقل إلى حقل العاطفة إدراكات العقل)).

وقال هربرت ماركيوز أيضاً: ((حقيقة الفن تقوم على تحرر الحساسية في إعادة توافقها مع العقل)).

و أما جوانب التذّوق فيه - في الفن - جوانب العواطف لا تكون كما هي عليه في الطبيعة. بل تكون دوماً مشفوعة بجواذب الجمال ومصعدة بقيمه العالية السامية التي تطرد كل المشاغل النزوية من ساحها. وتعلو على كل الطبائع الحيوانية في الإنسان. فمن نافذة الجمال هذه تمكن الفن أن يصبح أداة تربوية صالحة في المجتمع، مثلاً في معالجة قضايا الكبت، وإظهار كل المشاعر و الأحاسيس المطمورة بالقمع والقسر. إظهارها بصورة إنسانية راضية. مسلمة بالقيم النابعة من أغوار النفس الإنسانية وعلى رأسها قيم الحرية. فالفن أكبر وسيلة لتربية الحرية في نفس الفرد والمجتمع معاً. وأكبر عامل لنفي كل مظاهر العبودية والاستلاب في المجتمع. يقول هربرت ماركيوز نفسه: ((ارتباط الفن بالصورة يعوق نفي العبودية. وحتى يتحقق نفي الاستلاب ينبغي أن يظهر الاستلاب عبر الفن بمظهر الواقع الراهن والتحكم فيه.. فالفن هو حليف الثورة)).

وحتى لا يكون الفن قد قاد الإنسان إلى الحرية الفردية، التي ينشدها أعداء المجتمع والحياة. النزاعون إلى التقوقع على الذات والاستغراق في التأمل. المحصور بين عظام الجمجمة وبين أربعة جدران.. البعيد عن أي نبض في الحياة. وعن أية

معانـــاة ميدانيـــة فـــي الواقـــع. لتبقـــى ((الأنـــا)) بنظـــرهم شـــامخة فـــي قصـــرها العـــاجي الخيـــالي. كمـــا يقـــول (كلودبرنـــار) أحـــد المتطـــرفين فـــي هـــذا المـــذهب: ((إنمـــا الفن أنا)).

بـــل ليكـــون الفـــن الحقيقـــي هـــو الـــذي يقـــود الإنســـان ليتعامـــل مـــع الحريـــة، لـــيس بمفهـــوم هـــذه ((الأنـــا)) المطلقـــة، بـــل بمفهـــوم ((الأنـــا - الـــنحن)). فـــالفن بطبيعتـــه الأصـــلية ذو طـــابع اجتمـــاعي بحـــت وإن كـــان مـــن صـــنع إبـــداع ذاتـــي. لأن هـــذا الإبـــداع الـــذاتي يعكـــس العـــام مـــن النمـــاذج بشـــكل فـــردي محســـوس. يعكـــس كـــل مـــا يشـــعر بـــه النـــاس. ويحـــول الخفـــي المـــبهم عنـــدهم إلـــى شـــعور تـــام واضـــح. فـــالفن إذن نـــاتج عـــن انعكاســـات الصـــور الواقعيـــة فـــي الطبيعـــة والحيـــاة والمجتمـــع. انعكاســـاتها فـــي عدســـة نفـــس الفنـــان الشـــفافة. هـــذا الإنســـان المكثـــف لمجتمعـــه المحشـــود وعيـــاً لواقعـــه. المصـــفى مـــن نقـــاء المناقـــب والصـــفات وخلاصـــة الوجـــود. فهـــو الإنســـان الفـــرد - العـــام، إذا جـــاز هـــذا التعبيـــر. المستشـــرف لزمنـــه، القـــابض علـــى دفـــة المبادهـــة فـــي قضـــايا الحيـــاة بشـــعور مـــن الحريـــة المسؤولة.

****

فن النحت في الحضارة العربية

لا شك أن الأمة العربية، اتصفت منذ نشأتها الأولى، ومنذ أقدم عصورها التاريخية بالحيوية والاستعداد الحضاري، وكل مؤهلات البقاء والاستمرار في الوجود. فعمرت بناءات شامخة في الحضارات القديمة - الحضارات العربية السامية في الشرق الأدنى - استمدت منها سائر الحضارات الكلاسيكية (كاليونانية والرومانية) الشيء الكثير.

ثم تمخضت هذه الأمة، من خلال تقدمها وسير تاريخها، وبعد اعتلاج عوامل الحضارة فيها، واختمار عناصر المدنية والإنسانية، تمخضت عن عطاء سام في الروح والاجتماع والفكر والثقافة . وأصبحت كمائدته الوحيدة، تقتات منها مدنيات وحضارات الدنيا، طوال ستة قرون أو أكثر.

ولا ريب أن هذه الحضارة، قد أدت وظيفتها كاملة في المجتمع البشري، وتجاه الإنسانية، من حيث إرضاء الرغبات العقلية والفكرية والجمالية (الفنية)، عند الإنسان وكل ما يصبو إليه من حب في المعرفة، وتعمق في حقيقة هذا الوجود (الطبيعة والإنسان معاً)، واكتشاف مجاهله والتمتع بمعطياته الخيرة، فكانت زاخرة متموجة، تمور بالمعاني

والميـول والاتجاهـات التـي تنطـوي عليهـا الـنفس فـي أعمـاق ثناياهـا. وحكمـا الفـن يشـغل جانبـاً عظيمـاً. لكونـه يعتبـر مـن بـواكير الأعمـال الإنسـانية الإبداعيـة التـي تـدرج الإنسـان باسـتعمالها، فـي حضـارته البدائيـة الأولـى فاسـتخدمه فـي ممارسـاته الطقوسـية وفـي كثيـر مـن حاجـات حياتـه، لهـذا لا عجـب إذا الحضـارة العربيـة - الإسـلامية، تبنـت الفـن بمعنـاه السـامي الإنسـاني، إلـى جانـب مـا تبنـت مـن نشـاطات الـروح والعقـل والفكـر، وسـائر أنـواع الثقافـة، ودفعـت بعجلته أشواطاً إلى الأمام.

وطبعاً، كمـا هـو معـروف فـي تـاريخ الفن وتـاريخ علـم الـنفس أن الفـن أول مـا يصـدر، يصـدر عـن الإلهـام فـي الـنفس الإنسـانية فيعبـر فيهـا عـن أصـدق العواطـف والمشـاعر التـي تتـأجج فـي الكيـان البشـري. ولكـن لا يلبـث فـي وضـعه هـذا قلـيلاً حتـى يخضـع لتـدخل العقـل الـذي لا يحـب الفـراغ (كـالهواء). فينحـو بـه منحـى ملتزمـا، وتصـبح لـه وظـائف اجتماعيـة وعقائديـة، إلـى جانـب وظائفـه الأساسـية الجماليـة، ومـا تنطـوي عليـه مـن تربيـة الـذوق وصـقل الطبـع وتهذيبـه. وبالتـالي التسـامي والصـعود نحـو القـيم الخالـدة والفنـاء فـي فضـائلها الأبديـة. فهـذه سـنة تطـور الفـن، فهـو يصـدر أولاً عـن أسسـه المبدعـة الأولـى فـي الإنسـان، ثـم يشـارك بـه العقـل مـع سـائر القـوى الروحيـة والحـواس

والجوارح، حتى يكتمل ويتم نضوجه، فيتمكن عندئذ من تأدية رسالته، ويظهر بمميزاته وخصائصه القومية التي تجعله وليد الحاجات والمعتقدات في الأمة. كما هو في الوقت نفسه وليد مشاعرها، ونابع من فيض عواطفها، وهنا نصل بالفن كأنه يمثل الأمة في طابعها الإبداعي المستقل، وميولها الجمالية الذاتية وخصائصها الثقافية.

وفعلاً يشهد تاريخ الفن أن لكل أمة، وحتى لكل عصر خصائص ومميزات فنية ومستمدة من الذوق الخاص بتلك الأمة، أو ذاك العصر، الأمر الذي جعل الإنتاج الفني ممهوراً بالطابع القومي، طابع الأمة التي أنتجته واستلهمته من مخيلتها الخاصة، وبطابع العصر الذي تم ظهوره فيه.

وهذا القول ينطبق، بكل ما جاء فيه، على الفن العربي في التاريخ، أي الفن الذي أنتجته الحضارة العربية، أو الفن الذي أبدعته الأمة العربية، وراح يشارك في إشادة أضخم صرح للحضارة في العالم، وظل شامخاً في زهوره وبهائه ردحاً طويلاً من الزمن.

إلا أن بحث الفن العربي بجميع فروعه، والإلمام بكل أنواعه، في مثل هذه العجالة، أمر صعب، حيث يحتاج هذا العمل إلى جهود كبيرة وكتب

مطولة، لهذا سأقتصر في بحثي الآن على أحد الفروع التشكيلية في الفن العربي، وهو فن النحت.

وبالطبع فإن هذا الفن - فن النحت العربي - ووفق ما تقدم، قد عثر على عوامله الإبداعية الأولى، التي استلهمتها الحضارة العربية الفتية الناهضة، بعد ظهور دفقة نور الإسلام الروحية، في الجزيرة العربية، وتدفق دمها الحار النقي في النفس العربية، وتأجيج كل جوانبها الحيوية النشيطة، فكان هذا الجو المهووس بالاندفاع الروحي المتقد بالحماسة لأداء الرسالة وبناء الحضارة. من أكبر عوامل الإلهام والإبداع لفن النحت العربي، فكانت العقيدة الجديدة بمنطلقاتها الروحية والاجتماعية، هي العامل الأول في بناء فن النحت العربي، و أما العامل الثاني فكان استلهام الطبيعة نفسها والاستمداد منها. والعامل الثالث فمن استلهام الفنون الشرقية القديمة المتواجدة في البيئة المحلية.
أجل إنه لا يستطيع أحد أن ينكر ما لهذه الفنون من آثار في نشوء فن النحت العربي الأول، غير أنه في هذه النقطة بالذات، يجب ألا نغالي كثيراُ، كما ذهب المستشرقون ودارسو الفن العربي من الغربيين والمغرضين، حيث يعتبرون فن النحت العربي مجرد اقتباس عن تلك الفنون، فالأمة

العربيــة، أمــة مبدعــة بــالفطرة، امتــازت برقّــة الــنفس وخصب الخيال وقوة الإحساس، ورهافة المشاعر.
والإنســان العربــي هــو شــاعر مطبــوع بــالفطرة أيضــاً. وهــذا كلـــه يعــود لخصـــائص ذاتيـــة، ولفعـــل البيئـــة العربيـــة الســـمحة، ذات الســـهوب المنبســـطة والســـماء الصــافية، والمنــاخ الجميــل. لــذا مــا كانــت بــداءة نهضــة الحضـــارة العربيـــة تنبثـــق فـــي العصـــر الإســـلامي الأول. حتــى كانــت الأمــة العربيــة قــد طبعــت كــل مــا وضــعت يــدها عليــه مــن آثــار الفنــون الســابقة بطابعهــا الخــاص. فتفــنن النحــاتون العــرب بأســاليب الزخرفــة وبرعــوا فــي دقــة الجزئيــات، حتــى دفعــوا فــن النحــت العربـــي إلـــى مصـــافي الرقـــي، وأصـــبح فـــي درجـــة عاليــة مــن الروعــة والجمــال. ملمّــاً بكــل العناصــر التــي جعلتــه فنــاً مبــدعاً ممــداً للخيــال، ملهمــاً للــنفس - كمــا هــي الحــال - فــي فنــون النحــت العريقــة التــي اســتقامت أمورهــا مــن قبــل، وتمكــن العــرب بســعة خيــالهم وذكــاء قلــبهم، مــن حــرق مراحــل الاقتبــاس والتمثيــل والإبــداع بســـرعة فائقـــة. فـــأنتجوا مـــن ذوب روحهـــم ووهـــج ذاتهــم وحســهم وانفتــاح نفســهم علــى كــل مــا هــو خالــد فــي مجــالات الحــق والخيــر والجمــال. أنتجــوا عجائــب فنيـــة رائعـــة فـــي النحـــت تضـــاهي مـــا أنتجـــه اليونـــان والرومــان مــن عجائــب، مــزودة بخصــائص ومميــزات عربيـــة مســـتقلة، قـــد بـــوّأت الفـــن العربـــي أن يحتـــل

مكانتــه العالميــة فــي التــاريخ بصــورة عامــة، وفــي تــاريخ الفـن بصـورة خاصـة. وأن يـتم حلقـة هامـة فـي سلسـلة تطـوره، كانـت مفقـودة، والحـق يقـال إنـه عنـدما تقـدم العـرب أشـواطاً بعيـدة فـي الحضـارة والرقـي، وأسسـوا دولـتهم، وفتحـوا الـبلاد والأمصـار، وأطلعـوا علـى مـدنها وثقافـات شـعوبها. وبنـوا المـدن والقصـور. كــان لا بــد لهــم مــن اســتعمال الزينــات والزخــارف والنقـوش المنحوتـة للأبنيـة عنـدهم، والتـي اعتبـرت مــن متممــات المبــاني بالفعــل، بــل مــن مســتلزماتها الضــرورية. فظهــرت الزخــارف والنقــوش علــى واجهاتهــا وجــدرانها وأبوابهــا وأعمــدتها وهــي الآن تحــيط بنــا فــي أي موقــع أثــري عربــي نكــون فيــه، ونشــاهدها فــي أي بنــاء أو مســجد أو قصــر قــديم نزوره.

لقــد ســاد فــي الزخــارف والنقــوش النحتيــة الأولــى، الرســومات الهندســية التــي كانــت تتخللهــا كتابــات عربيــة، وقــد اســتخدم النحــاتون العــرب، آنــذاك، فــي نحتهــا قواعــد خاصــة ثابتــة فــي الفــن. وأمــا طريقــة الصـنع لهـا، فكانـت إمـا نقـراً بـالأزميـل علـى الحجـر، وأمـا صـبّاً فـي القوالـب، ومـن الأمثلـة علـى الطريقـة الأولــى، الزخــارف والنقــوش الموجــودة فــي جــدران معظــم مســاجد القــاهرة، ومــن الأمثلــة علــى الطريقــة

الثانيــة، النقــوش والتماثيــل الموجــودة فــي قصــر الحمراء بالأندلس.
وبتقــدم فــن النحــت، بعــد غنــى تجربتــه، وتطــور أســاليب النحــاتين العــرب فيــه، يبــرز فيــه فــن نحتــي خــاص هــو ((فــن النقــوش الكتابيــة)). الــذي يعتبــر بحـق، مـن مبتكـرات العـرب الخاصـة فـي النحـت، وقـد عمّـت هـذه النقـوش الكتابيـة الـدور والمسـاجد علـى حـد سـواء. وأصـبح بـذلك للخـط العربـي قيمـة فنيـة عظيمـة فــي الــنقش والزخرفــة، حتــى فاقــت فعــلاً ســائر أنــواع فـن النحـت فـي القـرن التاسـع مـيلادي ولا سـيما منهـا نقـوش الخـط الكـوفي، ومـا أشـتق عنـه مـن خطـوط، مثل الخط القرمطي، والخط الكوفي القائم الزوايا...
وأمــا الكلمــات أو الجمــل التــي اســتعملت فــي النقــوش الكتابيــة، فكــان أكثرهــا آيــات قرآنيــة، وبــالأخص ((البســملة: بســم الله الــرحمن الــرحيم)) و ((لا إلــه إلا الله، محمد رسول الله))...
وبعـد نضـوج تجربـة اسـتعمال الخـط العربـي فـي فـن النحـت، ظهـرت أنـواع أخـرى مـن النحـت فـي الـبلاد العربيــة إلــى جانبــه، وهــذا طبعــاً تــابع لتقــدم العــرب أكثــر فــي معــارج المدنيــة والحضــارة، وإضــفاء حيــاة الرفــاه والبحبوحــة علــيهم، فكــان لا بــد مــن تــزيين القصــــور الضــــخمة، وســــاحات الــــدور العظيمــــة بالتماثيـل، جريـا مـع الطـابع المـادي الحضـاري، ومـع

العـادة المتبعـة لـدى عظمـاء الأمـم التـي دالـت بسـلطانها لهـم، ولهـذا السـبب عممـت التماثيـل التـي زيّنـت بهـا القصـور، وتقـدم فـن نحتهـا كثيـراً، إلا أنـه لا نسـتطيع القـول أن تقـدم فـن التماثيـل يـوازي، فـي تلـك الحقبـة، تقـدم فـن (النقـوش الكتابيـة) للخـط العربـي، وذلـك لدوافع وأسباب خاصة.

ولكـن هـذا لـم يمنـع التفـنن فـي الابتكـار والإبـداع بنحتهـا وزخرفتهـا، الأمـر الـذي دعـا لأن يتخطـى اقتناؤهـا أصـحاب القصـور والثـراء، وتعـم الـدور وسـائر المبـاني الكبيـرة فـي المـدن العربيـة، ولأن تعنـى بهـا كتـب التـاريخ والحضـارة، فرسـمت لنـا منهـا نماذج عديدة وحدثتنا بإسهاب عنها وعن طرائفها.

فقيـل مـثلاً أن بعـض أمـراء مصـر، قـد مـلأ قصـره بتماثيـل نسـائه. كمـا كـان يوجـد فـي قصـر عبـد الـرحمن الأندلسـي لخطيبتـه تماثيـل كثيـرة، بـالغوا فـي عدها.

ووجـد إلـى جانـب هـذه التماثيـل الآدميـة، تماثيـل حيوانيـة - للحيوانـات القويـة الضـخمة - وقـد زال معظمهـا فـي العصـر الحاضـر. ولـم يبـق منهـا إلا مـا يمثـل حيوانـات وهميـة كـالتي توجـد فـي قاعـة الأسـود بقصر الحمراء.

وأحـب أن أورد هنـا هـذه الملاحظـة فـي تـاريخ فـن النحـت عنـد العـرب، وهـي التماثيـل البشـرية

والحيوانيـــة قـــد كثـــر اســـتعمالها فـــي قصـــور شـــمالي أفريقيـا والأنـدلس فقـط، بينمـا نـرى اسـتعمالها قـد قـل فـــي قصـــور المشـــرق العربـــي، علمـــاً انـــه يجـــب ألا ننســـى أن قصـــور هـــذا القســـم الشـــرقي مـــن الـــوطن العربـــي ومنازلـــه ومســـاجده قـــد حفلـــت بروائـــع مـــن أنـواع فـن النحـت الأخـرى، غيـر التماثيـل. هـذا ومـن القصـــور العربيـــة الشـــرقية التـــي امتـــازت بنقوشـــها النحتيـة، قصـر طوبـة، وقصـر ربـاط عمـان، وقصـر الخليفـة هشـام بـن عبـد الملـك فـي خربـة المعجـز فـي شـرق الأردن. وقصـر المشـتى فـي باديـة الشـام، الـذي بـدئ ببنائـه فـي خلافـة الوليـد الثـاني الأمـوي عـام 127 هجري.

وقـد اعتبـرت ((منحوتـات)) هـذه القصـور كلهـا. دلالـة واضـحة علـى تقـدم فـن النحـت فـي العصـر الأمـوي. وخاصـــة منهـــا نقـــوش وزخـــارف قصـــر (المشـــتى)، الآنـــف الـــذكر، الـــذي ينظـــر إليـــه مـــن أعظـــم الآثـــار العربيـــة. وأهمهـــا علـــى الإطـــلاق فـــي ((فـــن النحـــت العربـــي))، وذلـك لاتبـاع النحـاتين العـرب فيـه أسـلوباً فريـداً بخصائصـه ومميزاتـه، ممـا حـدا بالبـاحثين لأن يعتبـروه نموذجـاً كـاملاً لفـن النحـت العربـي فـي ذلـك العصـــر. أو مدرســـة مســـتقلة فـــي النحـــت، تســـمى مدرسـة ((أسـلوب النحـت الأمـوي)) وهـذا لمـا بلـغ بـه فـن النحـت العربـي مـن التفـرد والاسـتقلال عـن سـائر

مــدارس النحـــت المعروفـــة آنـــذاك، وخاصـــة منهـــا ((مدرســة فــن النحــت الســوري المســيحي)) ومدرســة (فن النحت الإيراني الساساني).
وتتجلـى فعـلاً روعـة النحـت العربـي (الأمـوي)، فـي هــذا القصـــر - قصـــر المشــتى - بــل فـــي واجهتـــه المنحوتــة نحتــاً غــائراً، والموجــودة فــي متحــف بــرلين، بنكهــة فنيــة عربيــة عجيبــة. تضــفي علــى (مجاوراتهــا) الأثرية جلالاً وعظمة.
وتقســم واجهـــة هـــذا القصـــر المنحوتـــة، بزخارفهـــا ونقوشـــها إلـــى مجمـــوعتين رئيســـتين: المجموعـــة الأولــى تتــألف مــن المثلثــات الموجــودة علــى يســار المــدخل، وفيهــا تبــرز رســوم عديــدة الأشــكال مــن الطيــر والحيــوان، وصــور آدميــة كثيــرة. وكلهــا قــد صـيغت صـياغة بارعـة فـي وسـط تفريعـات مـن سـوق الأعناب.
والمجموعـــة الثانيـــة تتـــألف مـــن المثلثـــات الموجـــودة علـــى يمـــين المـــدخل، ولكـــن لا أثـــر فـــي زخارفهـــا للكائنــات الحيــة. وأمــا ســوق العنــب، فقــد حفــرت علــى طريقــة فنيــة شــرقية قديمــة. إلا أن نحاتيهــا لــم يعتمــدوا فيهـــا ((المســـطحات)) الحجريـــة الكبيـــرة وذلـــك ليظهـــروا طريقـــة الضـــوء والظـــل فـــي النحـــت والزخرفة.

وهكذا ما انتهى العصر الأموي، في الدولة العربية، إلا وكان فن النحت العربي على الحجر والجص والخشب، بنقوشه وتماثيله وتيجان أعمدته، ومحاريب مساجده، قد أصبح فناً أصيلاً له مكانته العريقة في تاريخ الفن العالمي.

وجاء بعده العصر العباسي، فاستلم هذا التراث الثمين كاملاً ناضجاً، إلا أنه بعد تقدمه في الزمن لم يقف فيه عند حد معين، بل دفع بحركة تطوره إلى الأمام. فحصلت فيه زيادات ،وطرأت عليه تغيرات و إضافات عديدة. وطبعاً يعود فضل ذلك إلى تقدم الحضارة العربية، وازدهار الحياة وازدياد الثروات، والإقبال على تأسيس المدن الكاملة، وبناء القصور والدور فيها، فلما تأسست مدينة بغداد، ومن ثم مدينة سامراء، وغيرهما من المدن العربية الجديدة، استدعى الخلفاء العباسيون مهرة الفنانين من مختلف البلاد والأقاليم في العالم لتزيين القصور والمساجد والدور والحدائق. فهرع إلى بغداد وسامراء، مثلاً، جهابذة النحاتين والرسامين والعاملين في الأصباغ والألوان والنقوش، وحفر الخشب و الجبص والخزف والبرونز... هرعوا من مدينة الموصل والكوفة و واسط، ومن مدن سوريا وإيران الخ....

وكان من الطبيعي، بعد التقاء هذا الخليط من الفن والفنانين، أن تمتزج جميع الاتجاهات الفنية المتواجدة في معمعة العمل، وخاصة منها في أعمال الحفر والنحت، لتكون من تفاعلها الخصب أسلوباً فنياً جديداً مستقلاً. عرف أولاً باسم ((الأسلوب البغدادي)) ثم باسم ((الأسلوب السامرائي)) ثم باسم ((الأسلوب البغدادي - السامرائي))، والآن يعرف في التاريخ العام لتصنيف الفن باسم ((الأسلوب العراقي)) أو بالمدرسة العراقية. ومن العراق انتشر هذا الأسلوب في جميع أنحاء الوطن العربي، وبخاصة في مصر، في عهد الطولونيين، إذ ما زالت زخارفه الجصية موجودة إلى الآن، في مسجد أحمد بن طولون، المعروف في مدينة القاهرة.

كما تسرب هذا الأسلوب إلى مختلف أوابد العمارات في المدن، بشتى دول العالم. ولقد طمر الكثير من الآثار العربية الفنية في العراق. نظراً لطبيعة الأرض والبيئة.. وفي العصر الحديث اكتشفت الحفريات التي أجريت على العديد منها. وأخص بالذكر تلك الحفريات التي قام بها العالمان الأثريان الألمانيان (رزه، وهرتز فيلد) في سامراء فقد عثر هذان العالمان على الكثير من القطع الأثرية النفسية، أهمها تلك الجدران الرئيسة

للغـرف، التــي مــا زالــت مدفونــة تحــت التــراب منــذ مئــات الســنين، وكانـــت قواعـــدها الأرضـــية مزينـــة بحشـــيات مصـــنوعة مـــن الجـــبص المصـــبوب يبلـــغ ارتفاعهـــا - 125 - ســم، حفــرت فيهــا شــتى أنــواع الزخــارف و النقــوش الجميلــة. وقــد عثــر أيضــاً علــى جــدران كاملــة مملــوءة بزخــارف ((حفريــة)) رائعــة, منهــا قطــع قــد صــبت بواســطة قوالــب منفصــلة، ثــم ألصقت بها إلصاقاً.

وتتـــألف معظـــم الزخـــارف والنقـــوش المكتشـــفة مـــن تفرعـــات عنبيـــة، أو كيـــزان صـــنوبرية، أو مـــراوح نخليـــة، أو مـــن أشـــكال زهريـــات رائعـــة، وزعـــت أجزاؤهــا ضــمن تقســيمات هندســية متناســقة، وغالبــاً مــا اعتمــد فــي أســلوبها علــى الفــن الأمــوي الســابق، إلا أنهــا لا تخلــو مــن تطــورات وابتكــارات ((عباســية)) جديدة.

هــذا وكــان أهــم المكتشــفات الأثريــة التــي تــدل دلالــة واضـــحة علـــى فـــن النحـــت العباســـي، هـــي تلـــك المجموعـــة مـــن التيجـــان المرمريـــة المكتشـــفة فـــي منطقــة وادي الفــرات، مــا بــين الرقــة ((الرصــافة))، وديــر الــزور، والمحفــوظ قســم كبيــر منهــا الآن فــي متحــف (الميتروبوليتــان). وقســم آخــر فــي متــاحف مدينتي برلين واستنبول.

ويُرى من طريقة نحت هذه التيجان أن فن النحت العباسي فيها قد تجاوز أساليب فن النحت الأموي، القريبة نسبياً منه، وتأثر بأساليب فنون المنطقة، مثل أسلوب الفن السوري، الذي كان سائداً في بلاد الشام، قبل الإسلام. فقد استقى منه الفن العباسي الشيء الكثير في طريقة نحت التيجان، وخاصة اقتباس تلك الزخرفة الشهيرة المعروفة باسم((الشوكة السورية)). التي طغت على زخارف النحت في ذلك العصر، غير أن الباحث الفني المدقق يكتشف بيسر التطورات الجديدة التي أحدثتها يد الفنان العربي، على طريقة نحت التيجان هذه. وأعطتها الصبغة العباسية البحتة. ومن أهم هذه التطورات، هي زخارف ((التوريق))، التي تعتبر بحق من الابتكارات العباسية الجديدة في فن النحت بصورة عامة. حيث لم تكن معروفة، بصورة خاصة في فن النحت الشرقي السوري، وقد وصلت أوجها في القرن الحادي عشر ميلادي، وأهم زخرفة منها هي تلك الزخرفة المعروفة باسم ((المراوح النخيلية)). والتي أصبحت رئيسة في ذلك العهد، وهي عبارة عن أشكال ورقية قد جمعت بهيئة تشكيلات وتفريعات دائرية، أو نصف دائرية. تكون متموجة أو متعرجة، ثم تتخللها زخارف السيقان العديدة، والتي تتفرع منها - بدورها -

مـراوح نخليـة أخـرى. وبعـد هـذا تتخـذ المـراوح وأنصـافها شـكل الفصـوص التـي تكـون إمـا علويـة وهـي المحـزوزة أو المحفـورة. ذات الشـكل الـدائري، وإمـا سـفلية، وهـي التـي اتخـذت الشـكل الحلزونـي لشدة التواءاتها.

ومـن الابتكـارات العباسـية الجديـدة فـي فـن النحـت أيضـاً تلـك الزخرفـة التـي راجـت كثيـراً، مثـل زخـارف المـراوح النخيليـة السـابقة، وهـي التـي عرفـت فـي فـن النحـت باسـم ((زخرفـة النحـت المشـطوف)) أو المائـل. وقـد اعتمـد الفنـان العربـي فـي صـنع هـذه الزخرفـة علـى طريقـة خاصـة بالنحـت ((المشـطوف - المائـل)) الـذي تتقابـل فيـه حـوافي العناصـر بعضـها بـبعض بشـكل زوايـا منفرجـة. وقـد شـاع اسـتعمال هـذا اللـون مـن النحـت بصـورة خاصـة فـي زمـن الرشـيد. ومن ثم انتشر في مصر وبقية الأقاليم العربية.

وفـي نهايـة هـذا البحـث، أقـول أن فـن النحـت العربـي، فـي العصـر العباسـي، قـد تفاعـل مـع التـراث والبيئـة فـي المنطقـة العربيـة، وولـد ابتكـارات جديـدة فـي فـن النحـت العـام، وتمكـن أن يجـرد نفسـه عـن الطبيعـة ويكّـون أشـكالاً وزهريـات وتفريعـات زخرفيـة. لا يوجـد مـا يشـابهها فـي الطبيعـة، ممـا جعلـه عريقـاً كـاملاً مسـتقلاً. لـه قواعـده وأصـوله ومميزاتـه. ويعتبـر

بحـق ركنـاً مـن أركـان الحضـارة العربيـة التـي سـادت العالم في العصر التاريخي العربي.

أهمية ابن بطوطة العلمية في حركة الرحلات العربية

أولاً: ترجمتـه: هـو محمـد بـن عبـد الله بـن محمـد بـن إبـراهيم اللـواتي (1)، الطنجـي، يكنّـى بـأبي عبـد الله، ويلقـب بشـمس الـدين، ويعـرف بـابن بطوطـة. ولـد فـي مدينـة طنجـة فـي 17 رجـب سـنة 702 هـ (1304م). وأقـام فيهـا حتـى سـنة 725 هـ (1325م). ثـم غادرهـا، وهـو فـي الثانيـة والعشـرين مـن عمـره. وبقـي أكثـر مـن سـبع وعشـرين سـنة فـي أسـفارٍ متواصـلة، أمضـاها فـي رحلاتـه التـي نـذر لهـا نفسـه، واستقر بعـد ذلـك فـي مـراكش، فـي بـلاط السـلطان أبـي عنـان، مـن بنـي مـرين، وأملـى كتابـه المشـهور فـي نفـس الـبلاط سـنة 1356م. ثـم مـات فـي سـنة 1377م . نشـأ ابـن بطوطـة مـن والـدين كـريمين وأسـرة عريقـة فـي الاشـتغال بـالعلوم الشـرعية. فـدرس فـي أول حياتـه العلـوم الدينيـة، وتعلـم الأدب والشـعر. فشـبّ محافظـاً علـى النـواحي الروحيـة والفـرائض الدينيـة، وكـان أهـم أخلاقـه وصـفاته شـدة التـأثر، وسـرعة الانفعـال ويقظـة الوجـدان، والعاطفـة القويـة. كشـأن الأتقيـاء الـورعين. فقـد حـجَّ أربـع مـرات. وكـان تفكيـره بـالحج هـذا، حـدثاً هامـاً فـي حياتـه. إذ دفعـه

على حمل عصا الترحال والتجوال، ليخلد اسمه في ميدان الرحلات.

ثانياً: رحلاته:

قام ابن بطوطة في حياته بثلاث رحلات، أخذت من عمره مدة سبع وعشرين سنة. استغرق فيها في الرحلة الأولى أربعاً وعشرين سنة. وكان خط سيره فيها كما يلي:

غادر مدينة طنجة في شهر حزيران 1325م إلى شمالي أفريقيا ومصر وبلاد الشام، والحجاز ونجد ثم عاد إلى الشام ثانية. وطاف بلاد العجم والعراق وبلاد ما بين النهرين بكاملها. وبعد أن استجمَّ استأنف رحلته إلى ساحل أفريقيا الشرقي. ومنه عاد إلى هرمز مخترقاً القسم الجنوبي من الجزيرة العربية. وجاب جزر الخليج العربي المشهورة بمفاجآت اللؤلؤ. ثم رجع منها إلى الحجاز للحج، وانتقل منها إلى الشام. ومنها إلى الأناضول. وركب البحر من شواطئها الشمالية إلى شبه جزيرة القرم. وتجول في روسيا الجنوبية. ثم عاد منها مرتحلاً إلى مدينة القسطنطينية. ولازم فيها الإمبراطور البيزنطي (قسطنطين الرابع) الذي حكم بين عامي (1344 - 1363) م. ثم رجع إلى روسيا الجنوبية، وشاهد نهر الفولغا (أتيل). ومن هذه البلاد تابع سفره إلى شمالي بحر الخزر حتى

وصل بخارى وبلاد (قندهار). ثم واصل سيره منها إلى وادي السند في الهند، وأصبح قاضياً في مدينة دلهي، التي كانت قاعدة للسلطنة الإسلامية الهندية. وبعد ذلك انتقل إلى جزيرة سيلان، وصومطرة وجاوة، حتى دخل بلاد الصين. ثم غادر الشرق الأقصى عائداً إلى الشرق الأوسط، ثم الشرق الأدنى، ليستريح في مسقط رأسه مدينة طنجة. وأقام بعد ذلك في مدينة فاس بالمغرب الأقصى عام 1349م.

وأما رحلته الثانية فقد استغرقت سنة واحدة تقريباً. وطاف فيها بلاد الأندلس، فزار سبتة وجبل طارق وغرناطة ومالطة. ثم رجع إلى مدينة فاس.

ورحلته الثالثة فقد استغرقت سنتين (1352 - 1354م). طاف فيها بلاد السودان وزار تنبكتو، وتكدا، وأوهكار. ثم عاد إلى مدينة فاس بالمغرب.

وقد قدّر بعض العلماء الباحثين أن المسافات التي قطعها ابن بطوطة، في رحلاته الثلاث، بلغت خمسة وسبعين ألف ميل. وهكذا نرى أن هذا الرحالة العربي الكبير قد قسم العالم القديم (المتحضر) في عصره إلى ثلاثة محاور رئيسة، تنطلق من مسقط رأسه في المغرب الأقصى، وزّع عليها رحلاته الثلاث. فغطى في الرحلة الأولى الوطن العربي في شمالي أفريقيا وآسيا الغربية،

وشــرقي أفريقيــا، وجنــوب شــرقي أوروبــا، وأواســط قــارة آســيا وجنوبهــا وشــرقها. ثــم عــاد إلــى بــلاده المغـرب. وفـي المرحلـة الثانيـة غطـى بهـا جنـوب قـارة أوروبـا التـي تعتبـر أكثـر البلـدان الأوروبيـة حضــارة ورقيـاً. نظـراً لاحـتلال العـرب لهـا. ثـم اختـرق فــي محـور رحلتــه الثالثــة أواســط قــارة أفريقيــا المتحضــرة بسبب اتباعها الحكم العربي أيضاً.

ثالثاً - كتاب رحلاته:

بعـد أن اعتقـد ابـن بطوطـة أنــه أكمـل مشــاهداته للعــالم فــي رحلاتــه الـثلاث المـذكورة, واشـبع فيهــا مــا كــان يعـتلج فــي نفســه مـن حـب الاطـلاع علــى المجتمعـات الإنســانية المعروفــة آنـذاك. وأنــه قهـر مــا كــان يجهلــه فـــي أحوالهـــا المعيشـــية والعمرانيـــة (الاجتماعيـــة)، والسياســـية والروحيـــة والثقافيـــة وعاداتهـــا وتقاليـــدها الـخ... ألقــى عصــا ترحالــه. واسـتقر فـي بـلاط سـلطان مــراكش أبــي عنــان مــن بنــي مــرين وهــو لديــه هــذه المحصـــلة الثمينـــة مـــن المعرفـــة. وراح يملـــي فيـــه أخبــار رحلاتــه، بــأمر مـن السـلطان نفســه علــى كاتبــه الأديـب محمـد بـن جـزي الكلبـي، فـي كتـاب نفـيس قـيم، يعتبـر مـن أهـم كتـب الـرحلات فـي العـالم، فـي ذلـك العصـر. سـمّاه ((تحفـة النظـار فـي غرائـب الأمصــار وعجائـب الأسـفار)) وقـد انتهـى مـن إملائـه فـي شـهر صــفر مــن ســنة 757هــ (1356) م. وقــد كتــب ابــن

جـزي فيـه المقدمـة والخاتمـة، وقـام بتقسـيمه وتبويبـه، دون التعرض لمادته، قال في المقدمة:
((وأوردت جميـع مـا أورده مـن الحكايـات والأخبـار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختيار)).
رابعاً - الكتاب في الميزان:
نظـراً لتبـاين المجتمعـات التـي شـاهدها ابـن بطوطـة. وتعـدد الأقـاليم والمنـاطق التـي زارهـا، واخـتلاف أجناسـها وأقوامهـا. كانـت أخبـاره ومعلوماتـه التـي جمعهـا زخمـة فائقـة التنويـع. ممـا جعلهـا بالنسـبة لمواطنيـه ولـبعض الكتـاب القـدماء والمحـدثين مـن العـرب، مسـتهجنة مليئـة ((بالغرائـب والعجائـب)). فظـن كثيـر مـنهم بـه الظنـون السيئة. وشـكوا بأقوالـه، وعـزوا كـل مـا أورده إلـى أنـه مـن نسـج خيالـه، وبنـات أفكـاره، لـيس إلا.!؟ وكـان مـن بـين الكتـاب القـدماء الـذين شـكوا بـه، العلامـة العربـي ابـن خلـدون، مؤسـس علـم العمـران (الاجتمـاع). حيـث قـال فـي مقدمتـه المشـهورة: ((وأمثـال هـذه الحكايـات، فتنـاجى النـاس بتكذيبـه)). ومـن المحـدثين نيقـولا زيـادة الـذي شـك بصـورة خاصـة فـي وصـوله إلـى بـلاد الصـين. (2)
واسـتند معظـم الشـاكين بـابن بطوطـة، إلـى ذلـك الاضـطراب الـذي يشـاهد أحيانـاً فـي تضـاعيف الكتـاب. ونسـوا أنـه حصـل بسـبب عـدم كتابـة ابـن بطوطة مؤلفه بنفسه إنما أملاه إملاء.

وبالطبع بعد تقدم الزمن، واتساع العلوم والمعارف الإنسانية، دحضت مزاعم الشك في مضمون كتاب ابن بطوطة. وظهرت فيه شخصيته العلمية الموضوعية. فقد قام العلماء والمستشرقون بإجراء مقارنات بين ما أورده ابن بطوطة عن البلدان التي زارها، وبين ما نقله غيره عنها من متقدميه ومعاصريه، ولاحقيه من السياح والرحالة الأجانب. فثبت لديهم صحة أقواله. حيث وجدوا انطباقاً بين أقوال الطرفين.

هذا من جهة. ومن جهة ثانية، إن ابن بطوطة، نظراً لتربيته الأولى، ولما عرف من أنه رجل علم ودين، ولما اتصف به من صفات الصدق والأمانة، والدقة والبساطة. نرى أنه لا يسمح لنفسه بالاختلاق والكذب والغش فيما ذكره في كتاب رحلاته. لهذا يقوم بسرد الحكايات فيه سرداً على السليقة. وإذا ما نسي صاحبها يذكر ذلك بصدق وصراحة ويقول نسيته. وقد أبرز له هذه الملاحظة المستشرق العلامة المعروف(دوزي). حتّى أطلق عليه لقب ((الرحالة الأمين)). وهكذا ازداد الباحثون اطمئناناً لكل ما ذكره واعتبروه رجل صدق وثقة وأمانة. وأقبلوا على كتابه واهتموا به، ولم يكن رواجه مقتصراً على الوطن العربي وحضارة العرب وثقافتهم فحسب. بل انتقل إلى

الحضــارة الأوروبيــة الحديثــة. واعتنــى بــه علماؤهــا وباحثوهــا. وترجمــه المستشــرقون إلــى معظــم لغاتهــا. وكــانوا حــين ســمعوا بــذكر ابــن بطوطــة ورحلاتــه الواســعة الشــاملة، قــد تــداعوا للحصــول علــى كتابــه, وبــالأحرى علــى النســخة الأصــلية لــه, وبعــد لأي توصــلوا إلــى مخطــوط يتضــمن مختصــراً لــه، عــن طريــق الســائح(يوركهــا ردت). وجــاء بعــده (كوسفارتن) وتـرجم منـه إلـى اللغـة اللاتينيـة، الأسـفار الخاصــة بأفريقيــا والجزائــر وفــارس وبــلاد التتــار ونشـرها فـي عـام (1881م). ولكـن قبلـه نشـر القـس (صــموئيل لــي)فــي عــام (1828م) قســماً مــن هــذه النسـخة مترجمـة إلـى اللغـة الانكليزيـة، ومـن طباعـة مدينـة لنـدن. ثـم قـام العالمـان الفرنسـيان (دي سـيلان) و (ادوارد ديلوريــه) بترجمــة كــل منهمــا، بعــض أقســامها، ونشــراها فــي المجلــة الآســيوية المعروفــة عــامي (1843 - 1847)م. ولكــن ظــل العلمــاء يفكـرون فـي الوصـول إلـى النسـخة الكاملـة للكتـاب. وبعـد بحـث وتقـصٍ عثـر عليهـا وطبعـت فـي مدينـة بــارني باللغــة الفرنســية بــين عــامي (1853 - 1859)م. فــي أربعــة مجلــدات، بتحقيــق المستشــرقين (دفــر يمــري) و(ســانجونتي). ثــم طبعــت بعــد ذلــك باللغـة العربيـة فـي مدينـة القـاهرة طبعتـين. الأولـى فـي عــام 1871م. والثانيــة فــي عــام 1904م. وطبعــت

باللغة الألمانية في مدينة هامبورغ عام (1911 - 1912) م على نفقة المستشرق (مزيك). وترجمت إلى اللغة التركية باسم ((تقويم وقائع)). ثم تسارع العلماء لترجمة وشرح ونشر أجزاء معينة من هذه الرحلة((الرحلة الزاخرة)) ومن هؤلاء: (كولي، ودفنك، وهج، ودلانوس، وماركت، وفراندبول، وكوردبيه). وفي سنة 1929م نشر الأستاذ جيب Gibb (3)، مختصراً جديداً ذا حواشٍ علمية دقيقة باللغة الانكليزية. ثم نشرت وزارة المعارف المصرية في عام 1934م مهذباً لهذه الرحلة، أو الرحلات الثلاث، بجزءين قام بتحقيقه وضبطه الأستاذان أحمد العوامري، ومحمد أحمد جاد المولى.

خامساً ـ أهمية ابن بطوطة العلمية:

من تقرّي عناصر هذا البحث نستنتج مقدار الأهمية العلمية التي يشغلها ابن بطوطة في حركة الرحلات على الصعيدين العربي والعالمي .

فهو الذي دفع بحركتها في اتجاهها العلمي الصحيح.وذلك بما كرّس لها من سلوك جاد مخلص رصين. وبما قدمه من تضحيات وآلام، وبما استغرقه فيها من وقت يفوق عن ربع قرن. لكل ذلك اعتبر نموذجاً رائداً طليعياً في حركة الرحلات، وقمة من قممها العلمية العالمية. أنه ربط

مصيره بها، وقرن حياته بأسفارها، وأحاط بثقافته وعلمه كل ما يلم بها، حتى صار يجسّد بشخصه نضج الاختصاص والتخصص، في الحضارة العربية. فكان منذ نشأته الأولى يعتمل في نفسه هاجس كبير لمعرفة بلدان العالم. وراح يهيئ عقله وفكره ومطالعته من أجل تحقيق مطامحه وأحلامه. وهكذا رأيناه يترك مدينة طنجة، وهو في ريعان العمر، ليقوم بأسفاره الطويلة المتواصلة، ويتحمل فيها مشاق التنقل والترحال، ومعاناة التلاؤم الاجتماعي في البلدان التي يحل فيها، وتعلم لغات أهلها، ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم. فكان يبذل جهداً عظيماً في ذلك حتى يصبح كشخص منهم وهكذا تمكن في بعض المدن أن يتوصل إلى استلام بعض المناصب فيها. إنه بهذا السلوك يمثل بالحقيقة شخصية العالم الاجتماعي والباحث التاريخي الجغرافي. حيث تستدعي مقتضيات العلم والاختصاص أن يجرد القائم بهما نفسه وسلوكه من حياته السابقة ويتطبع بحياة المجتمع الجديد الذي حلّ به، ليدرسه ويكتب عنه، كما فعل ابن بطوطة.

وعلى كلٍ. بعد أن استكمل ابن بطوطة رحلاته، واستطلع بها العالم المعروف آنذاك. قام وأتحف الحضارة الإنسانية بتحفته الفاخرة، كتابه ((تحفة

النظـار فـي غرائـب الأمصـار وعجائـب الأسـفار)). الـذي جـاء نموذجـاً حيـاً للكتـاب المجتمعـة فيـه عناصـر البحـث العلمـي وعواملـه، مثـل دقـة الوصـف والبحـث والتقصّـي عـن الأمـاكن والأفـراد والمجتمعـات. والوقـوف عليهـا شخصـياً مـن قبـل مؤلـف متحـلٍ بقـوة إبـداع الكاتـب وحـسّ الناقـد السـليم، وذكائـه النافـذ والمتصـف - إلـى جانـب ذلـك - بصـفات الأمانـة والنزاهـة والتجـرد والابتعـاد عـن التحيـز والتعصـب الطـائفي والقبلـي والإقليمـي... وهكـذا أقبـل الدارسـون علـى هـذا الكتـاب يسـتفيدون منـه ويعتبرونـه كتابـاً جامعـاً لا يفوقـه أي كتـاب ألـف فـي العلـوم الإنسـانية مـن كتـب التـاريخ والجغرافيـة والاقتصـاد والعمـران. نظـراً لمضـمونه ولمـا اشـتمل عليـه مـن دقـة متناهيـة فـي التصـوير الاجتمـاعي والوصـف الـواقعي للمجتمعـات التـي تعـرف إليهـا ابـن بطوطـة، وأجـرى بينهـا المقايسـات والمقارنـات والموازنـات التـي يتطلبهـا - طبعـاً - المـنهج العلمـي. فجـاء شـاملاً - كمـا ذكـرت - لكـل النـواحي التاريخيـة والجغرافيـة والاجتماعيـة (العمرانيـة) والسياسـية والاقتصـادية والمعيشـية والروحيـة والثقافيـة.. فقيـل فيـه أنـه يعدّ مـن أهـم كتـب الجغرافيـة الوصـفية للـبلاد والجبـال. ومـن كتـب التـاريخ الاجتمـاعي والإسـلامي فـي القـرن الثـامن الهجـري (الرابـع عشـر مـيلادي) وتقـويم هـام

مـن كتـب تقـاويم البلـدان. وقـال فيـه الـدكتور زكـي محمـد حسـن: ((وقـد وفـق ابـن بطوطـة كـل التوفيـق فيمـا أمـلاه عـن رحلتـه. فخلـف لنـا صـوراً صـادقة. كلهـا حيـاة للعصـر الـذي عـاش فيـه. ووصـف لنـا الأشـخاص والجماعـات وصـفاً يجعلنـا نشـعر كـأنهم بين أيدينا)). (4)
وأمـا عـن شخصـية ابـن بطوطـة فقد قـال نفسـه: ((عدّ مـن أعظـم الرحالـة المسـلمين قاطبـة، وأكثـرهم طوافـاً فـي الآفـاق، وأوفـرهم نشـاطاً واسـتيعاباً للأخبـار، وأشـدهم عنايـة بالتحـدث عـن الحالـة الاجتماعيـة فـي البلاد التي تجول فيها)). (5)
وفـي العصـر الحـديث أقبلـت الحضـارة الأوروبيـة علـى كتـاب ابـن بطوطـة وأمثالـه مـن كنـوز الحضـارة العربيـة. وأخـذت منهـا مـا كـان لـه شـأن فـي تقـدمها وتطورهـا. واسـتفادت مـن رحلـة ابـن بطوطـة بصـورة خاصـة فـي معرفـة جغرافيـة الشـرق الأقصـى، والاهتـداء إلـى قـارة أفريقيـا واكتشـاف بعـض مجاهلهـا. حتـى تحمـس كثيـر مـن العلمـاء والرحالـة والبـاحثين الأوروبيـين لـه إلـى درجـة الإعجـاب. وأسـجل هنـا مـا قالـه فيـه الرحالـة الأوروبـي (سـتيزن): ((أي سـائح أوروبـي يمكنـه أن يفتخـر بأنـه قضـى مـن الـزمن مثـل ابـن بطوطـة بالبحـث، والكشـف عـن المجهـول مـن البلـدان السـحيقة مـع مسـافات السـفر.

وأية أمة منذ خمسة قرون تجد في أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية، وفيه استقلال الحكم والقدرة على الملاحظة والدقة ما لهذا الرحالة. إن معلوماته عن جهات أفريقيا المجهولة لا تقل عن معلومات (لاوون) الإفريقي)). (6)

وأخيراً يجب أن ننوه بأن ابن بطوطة قد أحرز قصبة السبق في حركة الرحلات، ونال فخراً كبيراً في دفعها إلى درجة النضج والاختمار. لم يحصل على ذلك بسبب نبوغه الشخصي ولا جهوده الذاتية الفردية التي بذلها فحسب. بل بسبب تقدم حركة الرحلات في الحضارة العربية التي طورتها من أسفار البعثات الرسمية والموفدين، وأسفار أصحاب الخراج الجباة،إلى ترحال أصحاب المصالح الاقتصادية والنجار. إلى الرحالة المحترفين أمثال الهروي والإدريسي وابن جبير وغيرهم الذين أورثونا تراثاً عظيماً يعتبر مفخرة من مفاخر علم الرحلات إذا جاز هذا الاصطلاح - وقد قال فيهم المستشرق الروسي (فلاديمير مينورسكي): ((ملؤوا الفراغ بين بطليموس اليوناني وماركو بولو البندقي، وأخبارهم وقصصهم أكثر تدفقاً وأشد حيوية من كتب علماء اليونان وجداولهم. وعلمهم أعظم اختياراً ونقداً، وأكثر في التفاصيل من ماركو بولو)). (7)

مــن هــذا المختبــر الحضــاري، نهــل ابــن بطوطــة، وتولدت عبقريته، ونال شأنه في حركة الرحلات.

الحواشي:

(1) نسبة إلى لواتة، وهي قبيلة كبيرة من قبائل البربر في شمالي أفريقيا.

(2) راجع كتاب الدكتور نيقولا زيادة ((رواد الشرق العربي في العصور الوسطى)).

(3) كان الأستاذ (جيب) يشغل منصب مدرس اللغة العربية وآدابها في جامعة أكسفورد.

(4) كتاب (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى) للدكتور زكي محمد حسن طبعة مصر 1945 ص 171

(5) المصدر السابق ص 136

(6) من مقدمة كتاب (مهذب رحلة ابن بطوطة) لأحمد العوامري، ومحمد أحمد جاد المولى. طبعة مصر 1937

(7) كتاب (الرحالة المسلمون في العصور الوسطى المذكور أعلاه ص 179).

****

غوطة دمشق وما قاله الرحالة فيها

بالنظر لهجوم العمران على غوطة دمشق المعروفة في التاريخ بكثافة أشجارها,ووفرة مياهها,وكثرة خيراتها.
و بالنظر لانحسار مساحتها الآن.وقلة بساتينها,تجاه هذا الزحف الكاسح من البناء.
وتعزيزاً لإعادة الغوطة إلى سابق عهدها ,و انتصاراً لبقاء البساط الأخضر الدائم ممتداً على مساحتها.
أسوق إلى القراء الكرام جملة مما قاله الرحالة فيها قديماً .عندما زاروا دمشق .
ورأوا غوطتها الغناء فسجلوا وصفهم ومشاهداتهم الحية لها ,وراحوا من فرط إعجابهم يستعيدون ما أنشده الشعراء في وصف محاسنها,وعلى رأس هؤلاء الرحالة الرواد الرحالة الكبير(ابن جبير) فقد كتب في كتاب رحلته المعروف باسمه عن غوطة دمشق.قال:
((دمشق ,جنة المشرق , ومطلع حسنه المؤنق.وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها,وعروس المدن التي اجتليناها .قد ثملت بأزاهير الرياحين ,وتجلت

بحلـــل سندســـية مـــن البســـاتين,وجلـــت مـــن موضـــوع الحسن بالمكان المكين .
وتزينـت فـي منصـتها أجمـل تـزيين.. ظـل ظليـل ومـاء سلسـبيل تنسـاب مذانبـه انسـياب الأراقـم، بكـل سـبيل وريـــاض، يحيـــي النفـــوس نســـيمها العليـــل، تتبـــرج لناظريهـــا بمجتلـــى صـــقيل. وتنـــاديهم هلمـــوا إلـــى معـرس ومقيـل. قـد سـئمت أرضـها كثـرة المـاء. حتـى اشـتاقت إلـى الظمـأ. فتكـاد تناديـك بهـا الصـم الصـلاب: ((اركـض برجلـك هـذا مغتسـل بـارد وشـراب)). - قـرآن كـريم - قـد أحـدقت بهـا البسـاتين إحـداق الهالـة بـالقمر، واكتنفتهـا اكتنـاف الكمامـة للزهـر وامتـدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر..)).
بلـى. انـدهش وانفعـل ابـن جبيـر بسـحر دمشـق وجمـال غوطتهـا وفتنتـه المنـاظر الخلابـة فيهـا، عنـدما رآهـا وقارنهـا ببلـدان أخـرى كـان قـد زارهـا، فجـاء وصـفه هـذا جامعـاً رائعـاً لدرجـة أنـه لـم يخـل بحـث قيـل فـي دمشـق وغوطتهـا فـي ذلـك العهـد، إلا وتقدمـه هـذا الوصف.
أمـا الإدريسـي، الجغرافـي العربـي الشـهير فقـد أطنـب فـي وصـف هـواء الغوطـة وكثـرة أشـجارها وجـودة ثمارها.
والمقدســي قــال عنهــا فــي كتابــه المســمى(أحســن التقاسيم في معرفة الأقاليم):

((دمشق عروس الدنيا مع سمرقند، ونهر الأبلة. أنزه منتزهات الدنيا..)).
وينقل لنا ياقوت الحموي في كتابه المعروف (معجم البلدان) قول أبي بكر الخوارزمي: ((جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصفد سمرقند، وشعب بوان، وجزيرة الأبلة ،قال: وقد رأيتها كلها وأفضلها دمشق، وقيل في غوطتها: كفضل الأربع على غيرهن. فكأنها الجنة وقد زخرفت وصورت على وجه الأرض.)).
وأما ياقوت نفسه فقد قال في دمشق وغوطتها: ((وجملة الأمر لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله. ومن المحال أن يطلب بها شيء من جليل أعراض الدنيا ودقيقتها وإلا وهو فيها أوجد من جميع البلاد)).
واليعقوبي وصفها بإسهاب، ومما قاله: ((مدينة دمشق جليلة قديمة وهي مدينة الشام، في الجاهلية والإسلام وليس لها نظير في بلاد الشام في أنهارها ومبانيها وكثرة عماراتها)).
وأما الرحالة الكبير ابن بطوطة فقد أفرد لها عدة صفحات في كتاب رحلته المسمى (تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار)، وأخذ يدون ما قد نظمه الشعراء في الوصف وما كتب الذين سبقوه، وكأنه أحس إزاء مهابة المحاسن

بالعجز عن الوصف، فقال: ((ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسناً وتتقدمها جمالاً، وكل وصف، وإن طال فهو قاصر عن محاسنها..))
وبعد أن ذكر بإسهاب عن ((إحداق البساتين الكثيفة بها، وغوطتها المخضرة وأنهارها الثجاجة)). قال: ((إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها. وإن كانت في السماء فهي تساميها وتحاذيها..)).
وينقل لنا هذا الشعر بالمعنى نفسه لشاعر لم يذكر اسمه:

إن تكن جنة الخلود بأرض
فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن في السماء فهي عليها
قد أبدت هواءها فهواها

وللشاعر شرف الدين بن محسن:

بلاد بها الحصباء درر وتربتها
عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق
وصح نسيم الروض وهو عليل

وقال الشاعر عرفة الدمشقي الكلبي:

ما صاح فيها على أوتارها قمر
إلا يفيئه قمري وشحرور

يا حبذا ودروع الماء تنسجها

أنامل الريح، إلا أنها زور

وهذا ما أنشده الشاعر أبو الوحش سبع بن خلف الأسدي. وقد سحر بحسن طبيعتها، وكثرة أفيائها وظلالها، حتى فضلها على سائر بلدان الدنيا:

مدينة ليس يضاهي حسنها

في سائر الدنيا ولا آفاقها

تود زوراء العراق أنها

منها ولا تعزى إلى عراقها

قد رتع الربيع في ربوعها

وسيقت الدنيا إلى أسواقها

ولا يقل عنه إعجاباً الشاعر نور الدين العنسي الغرناطي، الذي قال:

وانظر إلى ذهبيات الأصيل بها

واسمع إلى نغمات الطير في الشجر

القصب راقصة والطير صادحة

والزهر مرتفع والماء منحدر

وقد تجلت من اللذات أوجهها

لكنها بظلال الدوح تستتر

وبعد هذه الشذرات الشعرية التي جمعها ابن بطوطة. نستعرض جملة مما كتبه الشيخ عبد المولى الحضرمي. قال: ((سحت البلاد، ورأيت ما بها من الأعاجيب: فكانت صفد سمرقند وشعب

بـوان بنيسـابور ونهـر الأبلـة فـي أعمـال البصـرة، ودخلـت إلـى دمشـق وتنزهـت فـي غوطتهـا. وجـدتها أحسن من الثلاث. وأكثرها خيراً.
طولهـا ثلاثـون مـيلاً وعرضـها خمسـة عشـر مـيلاً مشـتبكة القـرى والضـياع لا تكـاد الشـمس تقـع علـى أرضها لغزارة أشجارها واكتناف أغصانها)).
هـذا ولـم يقتصـر وصـف دمشـق وغوطتهـا علـى الرحالـة العـرب فـي ذاك الـزمن - الوسـيط - بـل تعـداهم إلـى الرحالـة الأجانـب، ولا سـيما الإفـرنج مـنهم. فقـد أسـهبوا فـي الوصـف نظـراً لإعجـابهم بمـا رأوه، مـن (روعـة أشـجار، ووفـرة خضـار، وجـودة ثمـار). وغـزارة ميـاه، أذكـر مـنهم (ولـيم الصـوري) الـذي زار دمشـق وافتـتن بجمـال غوطتهـا وسـحر طبيعتهـا وكثـرة غياضـها ومياههـا وهـذا الرحالـة يعتبـر أول رحالـة غربـي خـص دمشـق ومـا يحـيط بهـا مـن جنـان بوصـف مفصـل ودقيـق. ثـم جـاء بعـده الرحالـة (تتمـار) الـذي زارهـا وأعجـب بهـا حتـى شـبه الغوطـة بالجنـة لكثـرة حـدائقها ((ذات الأشـجار المتنوعـة، والأزاهيـر الملونـة. تسـرح بهـا العنـادل، وتغرد حتى أيام الخريف)).
وأمـا الرحالـة (بنيـامين)، فقـد قـال فيهـا بعـد زيارتـه لهـا: ((إنهـا مدينـة كبيـرة جميلـة بهـا سـور تحـيط بهـا

بـلاد فائقـة الحسـن، تمتـد خمسـة عشـر مـيلاً. لا توجـد بالدنيا مثل حدائقها وبساتينها..)).
والرحالـة (سـوخم) وصـف أيضـاً، عظمتهـا وخيراتهـا وكثرة أشجارها وغيرهم كثير.

****

حكايات الشرق في موسيقى رامسكي كورساكوف

ظل الشرق - الشرق العربي - محتفظاً بمكانته السامية في نفوس الغربيين منذ القرون الوسطى إلى اليوم. فيتمثلونه بحضارته الغنية المتموجة، الجامعة لشتى مناحي الحياة، الزاخرة بكل الألوان والأشكال، التي تطمح إليها النفس الإنسانية. وينشدونه كموطن للسحر والجمال. يتراءى لهم بطبيعته الفاتنة، ومناظره الخلابة، ومآذنه السامقة ودوره المزخرفة الفخمة، وإنسانه الأسمر، المعتلي فوق جواده الجامح بهيئة الفارس الشاكي السلاح. الذي تزين وجهه لحية سوداء، وتتدلى على كتفيه عباءة مقصبة، كشارة للرجولة والبطولة.
وهكذا، فما الشرق إلا هذه الصور، التي تستهوي الخيال وتجتذب النفوس. فاستحقت منهم السفر والمغامرة. واستأهلت أن تكون محطاً لترحالهم وموضوعاً لكتاباتهم، يستلهمون منها الأساطير والحكايات التي تسيل على بيانهم أوابد أدبية وبدائع موسيقية وروائع من لوحات الجمال و الفن.

وسأقدم في هذه العجالة واحداً من هؤلاء الغربيين، المستهيمين بالشرق والمتأثرين بمفاتن حضارته والمتعلقين بحب آثاره وتراثه بما فيه حكايات البطولة وأقاصيص الفروسية، هو الفنان الموسيقار الروسي، رامسكي كورساكوف، الذي ولد عام 1844 في مدينة (تيزفينيا) التابعة لمقاطعة (نوفغورد) الروسية.

لقد عاش هذا الفنان في مدينة (تيزفينيا) حياة هادئة طبيعية. تلقى في مدارسها علومه الثانوية العادية. ولم يظهر عليه من خلالها أي اتجاه نحو الفن والموسيقا في بادئ الأمر. إلا أنه كان يميل دوماً إلى الحديث عن الشرق والاستماع إلى حكاياته وسائر أخباره. وبعد أن أكمل دروسه في مدارس مدينته انتسب إلى المدرسة الحربية. وتخرج منها برتبة ضابط بحري. ولكن كان من خلال سماعه دروس الموسيقا أثناء إقامته في المدرسة الحربية، وهو الشاب المندفع ذو الخيال المتأجج الجامح، كان قد تولد عنده ميل عنيف وجارف للموسيقا. فصار يطيل الاستماع إليها وينهل من كنوز منابعها. وقد خصص وقتاً كبيراً لدراستها حتى اتقنها وبرع بها. فطار صيته في مقاطعته وتجاوزها إلى المقاطعات الأخرى، وطبعاً كان يستلهم مواضيعه لمؤلفاته من حكايات الشرق موطن حبه القديم. وفي عام 1871

تـرك الجـيش وعـين اسـتاذاً فـي المعهـد الموسـيقي فـي مدينــة ســان بطرســبورغ. وهنــا فــوجئ، هــو نفســه، بهـذا التعيـين. واعتبـره كبيـراً عليـه. لهـذا أخـذ يجـد ويـدرس ليـوازي مهمتـه. وقـد تمكـن فـي وقـت قصـير أن يتغلـــب علـــى كـــل عقباتـــه، ويســـتوعب علـــوم الموسـيقا ويصـبح فيهـا عالمـاً ومنظـراً. الأمـر الـذي أهلــه لينضــم إلــى جمعيــة الموســيقيين الخمســة فيمــا بعــد. هــذه الجمعيــة التــي كــان قــد أسســها الفنــان الروســـي (غلينكـــا) مـــع تلميـــذه (دار كوميزســـكي). وكانــت تتــألف فــي عهــد رامســكي كورســاكوف مــن الفنـــانين - ســـيزاركي وبلاكيريـــف ويـــور دويـــن وموسورغسـكي ومـا انضـم رامسـكي إلـيهم حتـى غـدا مــن أبــرزهم. وامتــاز علــيهم بعلمــه وبســعة إطلاعــه وتوقـد خيالـه المشـبع بـروح الشـرق، وخصـب روحـه. فانــداحت نفســه فــي مســارب ســحر الموســيقا وجمــال مغانيهــا إذ راحــت تجمــع وتؤلــف مــن موجوداتهــا البلوريـة الشـفافة مـا صـفا واسـترق. فجـاءت عطاءاتـه بديعــة غنيــة ذات لغــة موســيقية قويــة نشــطة، ووحــي فنـــي (شـــرقي) خـــاص. وكـــان مـــن أهـــم مؤلفاتـــه المســتلهمة مــن ودائــع مخيلتــه عــن الشــرق رباعياتــه الوتريـــة. وقطـــع الأوبـــرا الجميلـــة مثـــل قطعـــة (ليـــالي ماســي) التــي ألفهــا عــام 1880 و (مــلادا) عــام 1893 و (ليلة عيد الميلاد) عام 1895.

إلا أن إبداعه وتفوقه في نقل سحر الشرق وترجمة جماله الأخاذ والتعبير عن مكنون روحه وحكاياته. كان أكثر ما تجلى عنده في السمفونيات التي ألفها مثل سمفونية (سادكو) التي تنطوي على إبداع جميل والحان رائعة يتمثل فيها شيء كثير من تراث الشرق الشعبي. وكذلك سمفونية (الديك الذهبي) وقد ألفها عام 1905. وسمفونية (شهرزاد) المشهورة. وسمفونية (عنتر) الذي حللها بتوزيع موسيقي بارع يترك عند سماعها أثاراً عميقة في النفس. وذلك من خلال استلهامه شخصية عنتر العربية، البطولية، التي يتحدى فيها إقطاع مجتمعه الجاحد لفضله والناكر لشخصه. فيفرض فيه وجوده كعضو اجتماعي شجاع سوي. له الحق أن يحيا ويحب ويعشق كسائر أفراده السويين.

هذا وظل رامسكي كورساكوف يجاهد في أداء رسالته الفنية إلى أن توفي عام 1909 في مدينة بطرسيورغ (مدينة السحر والموسيقا). فدفن فيها. وكله ذوب ووجد ليصوغ كل لآلىء الشرق في تنضيد موسيقي عجيب.

****

حياة الموسيقي لويس هكتور برليوز
سيرة في كفاح الفن، قادته إلى العبقرية والخلود

عاش لويس هكتور برليوز، منذ صغره، في بيئة بعيدة كل البعد عن ميوله الفنية، وما كانت تهفو إليه طبيعته، من حب جارف للموسيقى، بعكس ما كان يتيسر لأمثاله من مشاهير الموسيقيين، الذين نشؤوا في أوساط فنية ملائمة لميولهم، وتربى كل منهم في كنف والدين يحبان الموسيقى، ويمارسان العزف بصورة جيدة. فيشب في هذا الجو السحري البديع، مطبوعاً بالفطرة على حب الموسيقى، ومعرفة العزف بآلاتها المختلفة، فيحلق صعدا في سماء مواهبه. وبالتالي يبلغ به المآل إلى الشهرة والمجد اللذين يتوخاهما. بعكس فناننا لويس هكتور برليوز الذي عاش بين يدي والدين لا يربطهما بالموسيقى أي رابط، ولا يعرفان العزف على أية آلة من آلاتها، وحتى قيل أن المنطقة، التي ترعرع فيها، لا يوجد بها آلة واحدة من الآلات الموسيقية المعروفة. ولما شب لويس في أحضان أسرته. وظهرت بوادر ميوله الفنية عارضه والداه معارضة شديدة في متابعة هوايته. وزجره والده بالذات ليكف عنها، وينتسب إلى معهد الطب،

ليصبح طبيباً مثله، له عمل ذو أثر في المجتمع. ولكن لويس ثابر على احترام ميوله ومواهبه، وظل صادقاً مع نفسه، رغم كل العقبات التي وقفت في سبيله. فتابع دراسته الموسيقية، حتى توصل في النهاية إلى الشهرة التي يريدها من خلال شخصه كفنان عبقري خالد.

ولد لويس هكتور برليوز، في مقاطعة - الأيزير -، على شاطئ - سانت أندره بفرنسا عام 1803. في بيت يكتنفه التزمت العلمي - كما ألمحت - حيث كان والده طبيباً، ويريد أن يتجه أبنه للطب مثله. ألاّ أن لويس، عاند والده، وظل يتابع دراسة الموسيقى والعزف، يمارس ذلك على ما يقع تحت يديه من الآلات. وبالفعل، خلال ممارسته العزف، برزت موهبته الموسيقية مبكرة جداً. ففي السنة الثانية عشرة من عمره ألف بعض المقطوعات الناجحة في الموسيقى الرومانسية. ولما نال الشهادة الثانوية. أرسله والده إلى مدينة باريس، باعتقاده أنه سيدرس في كلية الطب هناك. ولكن لويس لم يعر اهتماماً لتلك الدراسة، بل أخذ يتردد على صالات الموسيقى ومسارحها، ويستمع إلى كبار الموسيقيين، وخاصة إلى موسيقى - كلوك - الراقية حتى أشبع رغبته، وقوى مداركه فيها. ولما وثق من نفسه بها، ترك كلية الطب بتاتاً والتحق بالمعهد

الموسيقي، وأظهر فيه إبداعاً وعبقرية على يد أستاذه الموسيقي المعروف - لوسيور - وفرض احترامه في الوسط الفني، كموسيقي مبدع لامع، ففي أثناء دراسته أصدر مقطوعته - لي فران جوج - عام 1827. وبعد عام أصدر مقطوعة - الفصول الثمانية لفاوست - . وفي عام 1830 ألف سيمفونية - الفانتازيك - الرائعة. وتعرف الجمهور إليه من خلال نشاطه هذا، وشهد له الكثير بالأصالة والنبوغ. حتى وضع في مرتبة بالموسيقى أرفع من مرتبة أستاذه نفسه، الذي صرح بأنه لا يحسده على شهرته.

ولكن لم يدم لبرليوز هذا النجاح طويلاً، حيث صدم بمقطوعته - هارولد في إيطاليا -، التي أصدرها في عام 1834. ولم تلاق النجاح الكافي الذي يليق به كفنان مشهور. وراح يجد أكثر. فأصدر في عام 1837 مقطوعة بعنوان - آوروكوييم -. ولكنها لم تنجح أيضاً. وفي عام 1838 لم يقبل الجمهور على سماع مقطوعته - بينيه فينوتو سليني -، ولا على مقطوعته الثانية - روميو وجولييت - التي أصدرها بعد عام، لهذا رأى أنه يتوجب عليه أن يجدد شهرته في بلاد غير فرنسا، فسافر إلى ألمانيا والنمسا وروسيا، ولكن ظل على النتيجة نفسها، ولم يصادف إقبالاً على موسيقاه، كما كان يتوقع،

وأدرك أن بينه وبين الجمهور حواجز، فراح يزيلها بالدراسة والتلحين والتأليف، بهمة لا تعرف الكلل، رغم ما كان يشعر به من الحرمان والهم ومن فقدان العاطفة. حتى أن مقطوعاته التي صدرت عنه فيما بعد كانت خلوا من روح العاطفة الحارة، التي اتسمت بها مقطوعاته في سن الشباب، على أنه ظل يقاوم صعابه بصبر وأناة، ويلتصق بآلاته ليل نهار، يلحن ويؤلف عليها، ساكباً بين أنامله ذوب روحه، ونقاء نفسه. مجسداً بأنغامها مشاعره وأحاسيس وجدانه، وآلام قلبه الذي كان عاثر الحظ في عمله، فتعذب بحب ممثلة عدة سنوات ولما تركها تعلق بعازفة الكمان الشهيرة - كميلياموك - . فخانته وكادت تقوده إلى الانتحار. ثم هام بحب الممثلة الإنكليزية ذات الشهرة العالمية - هنريتا سميتسون - ، ولما تزوجها في عام 1842 خطفها الموت من بين يديه.

ولكن رغم كل حياة البؤس والشقاء هذه، ورغم ما اعترض مسيرته الفنية من صعوبات، ظل - برليوز - هادئاً مطمئناً لنفسه، واثقاً من فنه الذي ضمخه بما استلهمه من مرارة الآلام ومعاندة القدر، فتفجر إبداعاً وسحراً وجمالاً، دخل من جديد مباشرة إلى نفوس الجماهير التي كانت تحتشد لسماعه. وهكذا تمكن بصدقه وأصالته أن يسترد

اعتبـــاره ويحظـــى بالمكانـــة الفنيـــة التـــي كـــان يطمـــح إليها.
وفعـلاً، قبـل أن تنتهـي حياتـه فـي عـام 1869، شـهد لـه الكثيـــر مـــن المختصـــين، بأنـــه يعتبـــر مـــن كبـــار الموسـيقيين فـي عصـره. وقـال فيـه النقـاد أنـه موسـيقي ملهـم يفـوق الكثيـرين قـدرة وموهبـة. هـذا واعترفـوا لـه بأنــه، هـو، الأول فــي فـن تنظـيم الأوركسـترا والتوزيـع الموســـيقي. تـــرك بعـــد مماتـــه كتابـــاً ثمينـــاً بهـــذا الموضـوع سـماه ((فـن الآلات))، كمـا اقـروا، جميعـاً، بأنـه هو، بطـل العـزف علـى البيـان فـي العـالم كلـه، بـلا منازع في عهده.
هـذه هــي سـيرة لـويس هكتـور برليـوز الـذي توصـل بصـــدقه وإخلاصـــه لفنـــه إلـــى المجـد والشـــهرة اللـــذين كـان يريـدهما، بعـد تلـك الحيـاة المريـرة القاسـية التـي عاشها.

****

معاناة الكتابة

إن ما نستمتع بقراءته، من أجناس الأدب، كسرحة في قصة. أو شرود مع قصيدة. أو رحلة بين دفتي رواية. ليس، هذا، إلا الشيء الجاهز المعد من الأدب، الذي نقطفه بيسر وسهولة. كما نقطف الثمرة الناضجة من الشجرة. هو الجانب المضيء منه. أما جانبه الآخر، المقابل. فهو ما يتجلى، في ذلك الجهد، الذي يبذله الأديب، وهو يعاني آلام مخاض الإبداع. ويستدر ضرع الكشف. ويطرق باب المجهول، حتى يستجلي كوامن إلهامه، فيكتب لنا أدباً نستعذبه ونتملى صوره. ونتنتشي بسحر أخيلته، ونحن في ارتكاء مريح. أو ضجعة قبل النوم. ولنعلم أن كل ما يصدر عن خاطر الأديب، إن هو إلا من ذوب روحه وعصارة نفسه، قضى فيه الليالي الطوال، يتحمل عذابات التأمل، ويصبر على غنج القريحة الحرون ودلالها. يؤجج نار الاعتلاج. ينفعل. يغوص. يستنتج خلاصة رحلة الحياة الشاقة. ثم يروح بعد لأي مرير،يسكب آياته الإبداعية، في عملية خلق جديدة.

فالأدب ليس هو هذه اللحظات العذبة الجميلة، التي نستمرئها، ولا تلك الإرهاصات المجنحة الطموح

التي نستشعرها، فحسب، بل هو أيضاً هذا العمل الخلفي الدؤوب. الذي نجد فيه تعميق الحياة وتكثيف الزمن، واستنفار الحواس وتوتر الأعصاب. فقراءة صفحة أدبية ما هي إلا تراكم من الزمن، وعامود طويل من الجهد والعناء. إن بناء الكلمات لأتعب بكثير من بناء الحجارة. وإن ابتكار الصور واشتقاق المعاني لأصعب من شق الصخر. فدقيقة واحدة من القراءة يبيت لها الأديب ساعات وساعات، وهو مؤرق مشدود ذاهل يتجول في مخبوءات بواطنه وتجليات ذهنه الكزوز. يستلهم. يستشرف يرفض. يبذل، حتى يصل إلى بؤرة همومنا. فيحدثنا عن ذواتنا. ويستشف حدوسنا. ويلامس الجوانب الخفية فينا. أو يجد الشيء الضائع منا. يدلنا عليه ويضيفه إلى وجودنا. يحكي لنا قصة ذاك الحيوان الأزلي، القابع فينا، المعذب في إنساننا، المضغوط بأثقال الوعي وأوجاع التبكيت والقسر. ولعمري. الغوص في أعماق المجهول، والتفتيش عن الأشياء المفقودة من قسمنا الإنساني الأعظم، أو إيجاد الأجزاء الناقصة من نفسنا الكبرى، التي نستكمل بها جميعاً شخصيتنا لهو عمل شاق. ولكنه سامٍ وفوق العادة!

****

خاطرة صغيرة في الشعر

يقال: كانت الكلمة في البدء. كلمة الإنسان. وكانت كلمة الشعر في بدء كلمة الإنسان. التاريخ شعراً كان. هيرودوت كان شاعراً وهو أول المؤرخين. ملاحم البطولة كانت شعراً، وهو ميروس لم يقدم الألياذة والأوديسة إلاّ في إهاب من الشعر.

أجدادنا العرب الجاهليون، أعلمونا عن خلجات أفئدتهم وهمسات خواطرهم، وعن ذكريات أطلالهم، وعن أيام معاركهم . بالكلمة - الشعر.

فلا عجب في أن يمثل الشعر المكانة الأولى في عالم الكلمة لدى الإنسان في كل زمان ومكان. وعند الأمم والشعوب جميعاً. فهو من حيث الشكل، ألفاظ شفافة، بلورية، موسيقية النغم، حلوة التعبير، رشيقة الأداء، يمور فيها الضياء والنور.

ومن حيث المضمون دفقة الحس الملتهبة، وخلجة القلب ورقة الوجدان، وحنو الضمير، وتواصل الإنسان مع أخيه الإنسان.

العودة

عـدت إلــى قريتــي الهادئــة الناعمــة البعيـدة عــن الضــجيج والضوضــاء، عــن كــل مــا يــوقر الأذن، ويثقـب الـرأس، مـن ضـجيج المدينـة وعجيجهـا عـدت إليهـا بعـد أن فارقتهـا ردحـاً طـويلاً مـن الـزمن. أجـل فارقتهـا راغبـاً لا كارهـاً، لمـا كنـت فـي أول شـماريخ شـبابي، أحمـل فــي صــدري عـريض الآمــال، وفــي دمــي دفقــات القــوة والنشــاط، واعتــرف فــي العلــن لا فــي الخفــاء، إن قريتــي الصــغيرة بجبلهــا المشــجر، وروابيهــا الخضــر المحيطــة. لــم تســتطع أن تمــتص قــواي، وتســتنفد همتــي، كمــا فعلــت مــع أتــراب المرحــوم والــدي، الــذين أبلــوا فــي كرومهـا وســهولها الــبلاء الحســن، ضــربا بمعــاولهم وحرثــا فــي الأرض العجـراء لقـد ضـقت ذرعـاً بمطـامعي وآمـالي. كانـت وسـيعة مغريــة إلــى درجــة أن دفعتنــي إلــى الســفر، فاســتقبلتني المدينــة وجــادت علــي بمــا تملكــه مــن وسـائل الجـذب والترغيـب ولـم يكـن منـي يومئـذ إلا أن نفضــت يــدي مــن قريتــي، وعملــت كاتبــاً عــدلياً. مســتبدلاً المعــول بــالقلم، والمنجـل بالريشــة، والقبــاء العربــي الفضــفاض بالبذلــة (الإفرنجيــة) الضــيقة الأنيقة.

وهكذا طالت بي الأيام، وامتدت السنون، حتى ذوت زهرة العمر وشحبت نضارة الجسم، فذهب الشباب، وغارت فتوته الزخمة الفياضة، فخرجت من الوظيفة معصوراً هزيلاً، كأن بي سقم مزمن. لقد كان الجلوس خلف الطاولة، وحمل القلم. ونسخ السجلات، أقوى تأثيراً علي من زرع الحقول وتسوير الكروم، وحفر التراب،فالقلم على دقة عوده، وخفة وزنه أثقل من المعول، وغمس الريشة في المحبرة، أصعب علي من سفح جرادل الماء على مساكب الخس والبقدونس والقرنبيط، والجلوس على الكرسي كان أشق على النفس، لدي، من السير وراء المحراث، أو تصريف الماء في قنوات السقاية.

لقد خاب ظني عندما حملت شبابي وقوة ضخه، وهربت بهما إلى المدينة بصحبة شهادتي الثانوية (الفرع الأدبي) لأثوب إلى تلك الوظيفة، السجن. وأسلخ فيها ثلاثين عاماً متواصلة بلياليها وأنهرها دون انقطاع. فأراني الآن، بعد أن أحلت على المعاش - أي تقاعدت - بحاجة إلى استبدال الهواء الحبيس وركوب الباص وزحمة الناس في الشوارع. إلى استبدالها جميعاً بالهواء الطلق في شعاب الجبل، والركض وراء الحيوانات، ورؤية الزوابع وهي تلتف حول نفسها، وتدور متجولة في

بيــادر قريتــي وحقولهــا المتراميــة علــى مــدى خــط الأفق.

لقـد عـدت بعـد غيبـة، إلـى قريتـي العزيـزة. عـدت إلــى أحضــانها الدافئــة الحنــون. اســتجم فيهــا الصــحة والعافيــة. وإعــادة الشــباب، إذا كــان الشــباب يعــود مــن جديد، في كنف طبيعة باسمة رضية رخية.

عـدت إلـى قريتـي مسـرع الخطـا. يـدفعني الشـوق والحنـين لأقبـع فـي بيتـي المشـمس المتواضـع، اسـتقبل فيـه ضـياء الكـون، وأخلـع عنـي رداء الوظيفـة السـميك الثقيـل، وانتـزع مـن رأسـي أدران المكتـب والـروتين، وأعباء المراجعين، وتعنت الرؤساء والمرؤوسين.

أجــل اســتقر الآن فــي بيتــي الريفــي القــروي البسـيط، وأتمتـع بحديقتـه الصـغيرة الحافلـة بـأنواع الــورد والنبــت الفائحــة بأعبــاق الشــذا والأريــج، الملطفـة بهبـات الأنسـام النقيـة البليلـة وأعـزف، دون هذه الحياة، عن أية حياة أخرى.

وبعـد. لا تصـدق أن هنـاك أجمـل مـن تلـك الغـدوة التــي تـنهض فيهــا، مـن فراشـك، حـين يـنهض الطيـر مــن وكــره وتشــاهده و أنــت ذاهــب إلــى حقلــك أو كرمـك، علـى ضـوء بهيـق الغلـس الأخيـر جماعـات (الفـراري)، وأسـراب، (السـمن والمطـواق)، تنتقـل بـين الأفنــان الملتفــة علــى جــانبي الطريــق، وهــي تهــدل بشدوها وغنائها.

وهـل تحظـى بجلسـة عذبـة، خاليـة بريئـة، كهـذه الجلسـة التـي تجلسـها علـى حافـة عـين قـراح، يتفجـر ماؤهـا الـزلال النميـر بـارداً مثلوجـاً، مـن بـين شـقي صـخرة بركانيـة ملسـاء كبيـرة، تطفـئ برحيقـه غلـة ظمئك، ببرودته ما كوتك به حرارة الهاجرة...؟!

وبعـد هـذه الجلسـة، تنتقـل غيـر بعيـد عـن الـرذاذ المنتشـر فـي الهـواء، إلـى تحـت شـجرة زيزفـون، وارفـة الظـلال ممتـدة الأغصـان، تتـرنم علـى سقسـقة العصافير حول الجداول والغدران.

ثـم تـنهض وتنظـر، مـن حواليـك، إلـى دنيـا الله الواسـعة. إلـى جناتهـا الخضـر المرافقـة للنظـر حيثمـا امتد وامتد.

وبعـد أن تشـبع حواسـك وأحاسيسـك وأنـت تسـير وتتجـوّل فـي هـذه الطبيعـة الصـافية. تـراك تصـير تنظـر إلـى نفسـك، وتشـاهدها مـن الـداخل. حيـث تهدهـدك الـذكريات الغاليـة الحبيبـة، وتلهـو بخيالـك الأحـلام العذبـة الجميلـة، فتسـبح فـي هـذا الفضـاء السـمح الرحـب، علـى أنغـام المنـى الغافيـة المجنحـة نحو عالم كله حب وخير وجمال...

إنك لتجد كل هذا في قريتي.

الله! مـا أحلـى قريتـي! ومـا أحلـى عـودتي إليهـا! ومـا أحلـى عنـاقي لطبيعتهـا الطـاهرة الخالصـة، بكـل مـا فيها من ماء وهواء وحيوان وطيور وحشرات...!!

نعم، وألف نعم. أقولها بلا تحرج. لقد عدت وعادت إلي الروح والحياة والشباب، عدت وفي العودة خير وعافية، عدت والعود أحمد...

****

هل أصبحت الأرض عجوزاً؟

دلت الدراسات الجارية على نشوء المادة في الكون أو على نشوء النجوم والكواكب. على أن النجم الفتي هو عبارة عن بوتقة نووية، يتحول فيها الهيدروجين إلى هليوم. أي الدقائق المبعثرة أصلاً، تتجمع بعزم الحركة في نوى معقدة، وتتحد بتوليد العناصر الأولى، وهكذا تتابع السير، فيتم تشكيل النجم أو الكوكب. ويعرف تحويل الهيدروجين إلى هليوم في الطبيعة بالعمر الأول للمادة. حيث تستقر في هذا العمر أو الدور، الهليونات وتسيطر على المسرح، وتنشأ عنها اندماجات جديدة ، وتولد عناصر الكربون - الفحم - والأوكسجين والنيون..

ويظهر نشاط في النجوم ذات الحرارة العالية، للسيرورة النترونية، حيث تولد تفاعلات الحرارة النووية تدفقات نترونية، تعتبرها هامة في تكوين العناصر الثقيلة في المادة، فهذه النترونات تدخل بسهولة إلى داخل النوى. فتزيد من رقمها الكتلي، ومن عددها الذري - الجوهري -. فكما هو معروف في الواقع الكيميائي النووي أن وصول نترون خارجي إلى نواة يغير البنية فيها، ويولد النظير لها. فالنوى الغنية بالنترونات، يتحول فيها

النتـــرون إلـــى بروتـــون، مـــع إصـــدار إلكتـــرون طبعـــاً، أي إشـــعاع - بيتـــا -. لأن إشـــعاع بيتـــا هـــو إشـــعاع الكترونـــي، وهكـــذا تتولـــد عناصـــر ذوات أرقـــام ذريـــة متزايدة.

ولقـــد حصـــلت فـــي كوكبنـــا الأرضـــي هـــذه الأدوار - الأعمـــار - لتفكـــك النـــوى واســـتحالة العناصـــر الماديـــة إلـــى عناصـــر ماديـــة أخـــرى، وأهـــم دور فـــي الأرض هـــو دور التوريـــوم والأورانيـــوم، فيقـــدر عمـــر الأول بـــ 700 مليـــون ســـنة. وعمـــر الثـــاني بـــ 4.5 مليـــار ســـنة، فـــالتوريوم والأورانيـــوم همـــا شـــاهدان حقيقيـــان علـــى تـــاريخ نشـــوء الأرض، فـــإذا مـــا قســـنا فـــي صـــخرة كميـــة الأورانيـــوم التـــي اســـتحالت إلـــى رصـــاص، تمكنـــا مـــن معرفـــة عمـــر الصـــخرة وهـــذه تقودنـــا إلـــى معرفـــة التـــاريخ الجيولـــوجي. وبنـــاء علـــى هـــذا الأســـاس قـــدر عمـــر الأرض بـــ 4.5 مليـــار ســـنة، وقـــدر العـــالم الألمـــاني - فينبـــرغ - ذخـــر الأرض مـــن التوريـــوم بـــ 50 ألـــف مليـــار طـــن، ومـــن الأورانيـــوم بـــ 129 مليـــار طـــن - فـــالأرض غـــداة تكوينهـــا - وحســـب مـــا ذكـــر فيمـــا تقـــدم - كانـــت تحتـــوي علـــى عناصـــر مشـــعة، أكثـــر ممـــا هـــي عليـــه الآن، والعناصـــر الكبيـــرة النشـــاط هـــذه تتناســـب عكســـاً مـــع - الـــدور - للعنصـــر، فالدراســـات تشـــير إلـــى أنـــه يتفكـــك كـــل ســـنة مـــا يقـــارب 3000 طـــن مـــن التوريـــوم و 5000 طـــن مـــن الأورانيـــوم رقـــم

238 و 900طـن مـن الأورانيـوم رقـم 235 علمـاً أن الأورانيوم رقم 234 قد زال من الأرض تماماً.
وهـذه الظـاهرة، ظـاهرة تنـاقص المـواد المشـعة مـن الأرض. تقـود بـالأرض إلـى حالـة الابتـراد، وهكـذا يكـون بنضـوب العناصـر الأشـد نشـاطاً - إشـعاعاً - قـد انخفـض المعـدل للحـرارة التـي تولـدها. فمـثلاً التوريـوم والنظـائر الأساسـية للأورانيـوم انخفـض معـدلها مـن 13 حريـرة فـي كـل كيلـو غـرام واحـد مـن الأرض خـلال مليـون سـنة إلـى معـدل 4 حريـرات فـي الكيلـو غـرام الواحـد. فـالأرض بعـد أن كانـت حـارة جـداً فـي الطـور الأخيـر مـن تكوينهـا بـدأت تبتـرد بتبـاطؤ، وأخـذ سـطحها يسـعى نحـو درجـة حـرارة المحـيط التـي يفرضـها، حتمـاً، البعـد عـن الشـمس. ونحـو حالـة المـاء سـائلاً، وحالـة الأكاسـيد متصـلبة. بحيـث تـم تشـكيل القشـرة الأرضـية تـدريجياً. وبالتـالي كتلتهـا التـي تقـدر - بـ 6 ملايـين - مليـون مليـون مليـون مليـون - طـن، منهـا 100 مليـون طـن وزن جسم الإنسان.
وقـد ولـدت ظـاهرة الابتـراد فـي الأرض، لـدى العلمـاء المختصـين خوفـاً، بـأن الأرض سـتبرد يومـاً حتـى تصـبح غيـر صـالحة لاسـتمرار الحيـاة الإنسـانية عليهـا. وقـد حسـبوا أن هـذا الابتـراد - المميـت - سوف يحل بعد مضي - مليون مليون مليون - سنة.

والأرض هي الآن في الدور الأخير من صيرورة عمرها، تشهد مرحلة انتهاء النمو، وتبدأ فيها مرحلة الهبوط، فهي تخسر مثلاً كثيراً من العناصر الخفيفة. فالإشعاع فوق البنفسجي للشمس يؤثر على ارتفاع 100 كم في الماء، فيحطم جزيئاته، ويحرر الهيدروجين، فيدفعه أولاً نحو الهالة المحيطة بالأرض، ثم يخرجه نحو الفضاء، وهكذا تخسر الأرض قرابة 100 طن من الهيدروجين يومياً، لا تعوضه الشمس بما ترسله من البروتينات إلا بنسبة قليلة.

هذا وكانت الأرض تعوض هذا الذي تخسره من العناصر الفعالة، شيئاً من المعادن التي تكون على شكل مادة مبعثرة ترد من الفضاء - النظام الشمسي، على شكل شهب ونيازك تسقط على الأرض، فتزداد بها كتلة الأرض. وإن كانت زيادة طفيفة. وقد قدر الرحالة السويدي - نورد شولد - منذ عام 1874 ما يرد من السماء إلى الأرض ما يعادل مليون طن من المعادن. وقد صادق على هذا الحساب العالم - بريستون - مدير مراصد هونولولو عام 1957، فكشف أن هناك 1 ملغرام من الغبار الشهبي في كل 1600 م3 من الهواء.

****

نشأة الكون والحياة في كتاب (قصة المادة السيبرانية والكون)

يعتبر العالم الأمريكي ألبير دوكروك في الوقت الحاضر، من أكبر العلماء المتعصبين للعلم السيبراني وما يتفرع عنه من مفاعيل العقل الارتجاعية الذاتية. فقد اعتبر حركة المادة حركة سيبرانية، واعتبر المادة برمتها مادة سيبرانية، وبنى عليها نظرية كبيرة وسعها وعظمها حتى استوعب فيها نشوء الكون والمادة والحياة، ونراه قد فصل معالم نظريته هذه في كتابه الشهير
((قصة المادة السيبرانية والكون)). ترجمه إلى العربية المهندس وجيه السمان ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق.

لقد اعتبر (دوكروك) في كتابه هذا أن الكون (العالم) كان في بدء نشوئه عبارة عن سحابة كبيرة جداً من الهيدروجين المحرر - أي مجموعة من الالكترونات والبروتينات وبقية الدقائق النووية المبعثرة. مستشهداً بما دلت عليه معلومات المصادر العلمية الحديثة، التي تؤكد أن كمية الهيدروجين الحر - أي الهيدروجين المحرر - تتراوح ما بين (60 - 100%) من كتلة المجرات

المبتدئة في التكوين، وطبعاً لا بد لكل مادة من حركة. حتى ولو كانت هذه المادة دقيقة جداً ومتناهية في الصغر، كإحدى دقائق الهيدروجين المحرر. ومن هنا يعمر (دوكروك) كونه فيقول: بفعل حركة ما تتجمع كتلة ما. وكل كتلة تحدث طبعاً حولها قوة جاذبية، تجذب نحوها المادة المبعثرة التي في جوارها، فتزداد كتلتها وتزداد معها قوة جذبها، ويتغير بالتالي تركيبها - أي بنيتها.

فمن تجمع تلك الدقائق المتفرقة والمبعثرة في الأصل تولدت ((النوى المادية)) ببناها المعقدة، والتي أدت هي، بدورها فيما بعد إلى ولادة العناصر الأولى في الكون. وهكذا كبرت تلك التجمعات المادية واتسعت وتغيرت إلى درجة أن كونت النجوم، وكونت الكواكب السيارة والتي أرضنا كوكب منها.

إذن كل نجم - كما يذكر (دوكروك) - هو عبارة عن بوتقة نووية فعالة. يتحول فيها الهيدروجين إلى هليوم، وذلك بفعل سيرورة النترونات مع البروتينات في النواة. وتحويل الهيدروجين إلى هليوم يعتبر العمر الأول لكل نجم في هذا الكون الرحيب. وهذا التحويل، تحويل الهيدروجين إلى

هليوم، يولد طبعاً طاقة محررة. يوفر منها للنجم الناشئ ما يلزمه في نموه.
فخلال ولادة النجم - أي بعد تحويل عنصر الهيدروجين إلى عنصر هليوم - تصبح الهليونات هي المسيطرة على مسرح التفاعل(التحويل) المادي، وهنا ينتهي العمر الأول في النجوم - أي بعد هذه السيطرة الهليومية - ويبدأ فيها العمر الثاني. ولقد نشأت خلال هذا العمر - العمر الثاني - بفعل ذلك التفاعل (التحويل) المادي اندماجات مادية جديدة في النجوم، فتولد الكربون ثم الأوكسجين والنيون. أي نشأة العناصر المستقرة.
ويدعم (دوكروك) كلامه هذا بما أثبتته الأبحاث العلمية الحديثة جداً والتي تقول أن كل النجوم ذات الحرارة العالية تولد فيها التفاعلات الحرارية النووية تدفقات نترونية تؤدي إلى ولادة كميات من العناصر الثقيلة. فدخول نترون إلى داخل النواة يزيد من رقمها (الكتلي) ومن عددها (الذري - الجوهري) - كما هو معروف في الفيزياء.
إذن كلما وصل نترون خارجي إلى نواة، يغير بنيتها ويولد فيها بما يسمى بالنظير. وقصته معروفة في العلم. والمعروف أيضاً أن النوى ذات الغنى الزائد بالنترونات، يتحول النترون فيها إلى بروتون، وكل تحول يرافقه - حتماً - إصدار

إلكترون. وهنا تحصل حالتان الحالة الأولى هي استقرار العناصر الجديدة لأن هذه العناصر لا تستقر إلا إذا تم الإصدار الإلكتروني. والحالة الثانية هي إحداث نشاط إشعاعي هو إشعاع ((بيتا)). فمن المعروف في الفيزياء اليوم أن كل إشعاع ((بيتا)) هو إشعاع إلكترونات. وبهذه السيرورة تتوالد عناصر ذوات أرقام ذرية متزايدة وأخيراً تظهر العناصر الثانية المستقرة. بعد تشكل مادة النجوم والكواكب السيارة والأرض منها، لم تجد تلك الدقائق المادية - الذرية، التي تؤلف الكون بأسره، والتي يكمن في خفاياها المذهلة مصيره العجيب. لم تجد هذه الدقائق وسطاً خصباً لها مثل أرضنا. فهي قد أكسبت تلك الجزيئات والذرات خصائص مدهشة، وجعلتها تخضع لاتحادات كيميائية فعالة ثرية، لم تجدها في كوكب آخر. وهنا يشيد (دوكروك) بأرضنا (في هذا الخصوص)، لأن هذا الوسط أو هذا النطاق الأرضي قد أفسح المجال - في خصائصه - لأن يتمخض عن ذلك العزم المادي، الذي يجري على كوكبنا الأرضي، لأن يتمخض عنه حدث ذرائعي. فاعتبر (دوكروك) أن ذلك العزم المادي كان مسيراً لأجله، أو كان هو هدفه وغايته. ألا وهو ولادة الخلية الأولى التي ظهرت الحياة بها لأول مرة في هذا

الوجـود ونجحـت مغامرتهـا علـى الأرض، مغـامرة البروتوبلاسـما علـى حـد تعبيـر العـالم البيولـوجي أنونسـي جـان روشـهان. ووجـدت نفسـها لأول مـرة علـى سـطح الأرض. وتشـبثت تمامـاً بالبقـاء بواسـطة مادتهـا (البيولوجيـة)، حتـى صـار حلـم كـل خليـة أن تصـبح خليتـين - كمـا يقـول العـالم الروسـي البيولـوجي ف. جـاكوب. وهكـذا توالـدت الحيـاة وتوالـت سلسـلتها التصـاعدية مـن الخليـة الأم الأولـى حتـى بلغـت ذروتها في الإنسان.

وهـذا التواصـل المـادي - الحيـاتي. لـه عنـد (دوكـروك) قصـة شـائكة معقـدة فهـو يعتبـر أن الـذرات وكـذلك الجزيئـات آلات - أي مؤسسـات - صـناعية، ذات حركـات داخليـة ارتجاعيـة ذاتيـة. فلمـا بلغـت أوج عزمهـا وتقـدمها اسـتطاعت أن (تفبـرك) الحيـاة. فهـي تلـد و تتطـور وقـد لعـب فيهـا ميكانيكيـا التركيـز الـذاتي (السـيبراني) دوراً فعـالاً فـي القـوة والخلـق. فبواسـطتها تجمعـت المركبـات الماديـة (الذريـة) علـى أسـاس الملاءمـة النوعيـة، ثـم اختلطـت هـذه المركبـات بالأوسـاط السـائلة - أي أوسـاط المحيطـات. وفـي هـذه الأوسـاط بالـذات حـدث جيشـان شـديد سـببه عمليـة التحـريض التـي تقـوم بهـا الجزيئـات. (وهـذا التحـريض يحصـل عنـدما تكـون جزيئـات المـادة الواحـدة موجـودة فـي هـذه الأوسـاط المرنـة ((

السائلة)) فتمر من أمامها جميع الجزيئات المادية الأخرى).
من هذا المرور يتولد تحريض بالغ التوتر فيحدث هو بدوره جيشانا شديدا. وتحت تأثير الإشعاع فوق البنفسجي الصادر عن الشمس، إلى هذا الوسط المادي الصاخب، تولد ذرات الكربون والهيدروجين والأوكسجين والآزوت الأحماض الأمينية، البالغة التعقيد والتركيب. إن هذه الأحماض العجيبة هي بالأصل نوع من تجمعات أو اتحادات لدقائق مادية، وما أن أصبحت في حالة التجمعات (الاتحادات) حتى فاقت سابقاتها بما اكتسبته أو ملكته بوضعها الجديد من ميزة خاصة مدهشة، فهي يمكن لها أن تتحد عملياً بجميع الأشكال المادية الأخرى وتؤلف معها،وفي داخل وسطها، سلاسل طويلة متتالية من الاتحادات. شبهها (دوكروك) بعربات القطار. وهذه المتواليات الآلية تصبح عندئذ بمثابة معامل صناعية صغيرة وظيفتها هي أن تخضع المادة المجاورة لها وتحيلها إلى تحولات نوعية خاصة، فتكون قد صنعت تجمعات (اتحادات) جديدة وهكذا دواليك...
بعد ذلك نرى (دوكروك) - الذي يركز بالطبع على الفعل الارتجاعي، أو الفعل الذاتي - نراه يميز صنفاً من بين تلك الاتحادات، قد عراه نمو

إجبــاري، وذلــك بفعــل نشــاط ذاتــي (ســيبراني)، فأحــدث تــأثيراً فــي الوسـط المحـيط ونتيجــة هــذا التـأثير. صـنع مـن نفـس طبيعـة ذلـك الوسـط المحـيط اتحــادات جديــدة كانــت أكثــر ثباتــاً وقابليــة لتحمــل الهجمات ((المضادة)) التي تعتريها.

وهكـذا نـرى فـي رأي (دوكـروك) أن التوالـد الـذاتي، والتحسـين فـي التكـوين والزيـادة فـي الإتقـان، والقـدرة علـى المقاومـة، والثبـات. كانـت درجـات متقدمـة علـى صـعيد سـيرورة (الجـزيء المعقـد) فـي وصـوله إلـى مرحلــة الخليــة الأولــى - مرحلــة الحيــاة. حيـث يبلـغ فيهـا هـذا (الجــزيء أو بتعبيــر أعــم المــادة) يبلــغ أسـمى درجـات المجـد والانتصــار فبحيويتــه الجديـدة هــذه تمكــن أن يرتــدي آلاف اللبوســات والأشــكال.. فجاءت الأعضاء والكائنات الحية والدماغ...

****

نظرة في طبيعة مفهوم المادة

لقد شغلت المادة الفكر الإنساني منذ القديم. فبعد أن أخضع الإنسان الطبيعة لتأمين حاجاته الحيوية، والضرورية، كأنما راقته لذة استعمال العقل. فراح يستعمله في التفكير في كل شيء في هذا الوجود. وطبعاً كان للمادة منه النصيب الأوفى. وتدرج في بحوثه فيها إلى أن وصل إلى درجة التجريد. فحلق في سمائها الداخلية وأبدع في كشف دقائقها ايما إبداع.

توصل الفكر الإنساني في العهد اليوناني إلى مفهوم ((الذرة)) في المادة: Atome وأشهر المفكرين والفلاسفة فيه هم: ديمقريطس. و أبيقورس ولوقيبس، وانتقل هذا المفهوم إلى الفكر العربي فتبناه وسمى نظرية الذرة بنظرية ((الجوهر الفرد)). وبقي المفهوم الجوهري، هذا، ممثلاً لطبيعة المادة حتى أوائل القرن التاسع عشر، حيث انتقل المفهوم نفسه، من العرب إلى مفكري عصر النهضة الأوروبية، وساد في الفكر الأوروبي وفي المؤسسات العلمية طوال قرون ذلك العصر، وأشهر المفكرين فيه هم: غاسندي، وروبرت بويل. وبعد تقدم العلوم التجريبية، ترسخت النظرية

الجوهرية ((نظرية الجوهر الفرد، العربية -، وأثبتت صموداً أمام العقل في تمثيل الوجود المادي، على الصعيد الفلسفي والعلمي)).

ففي المجال العلمي قادت بحوثها إلى تطوير علمين هامين جداً، هما: علم الفيزياء وعلم الكيمياء، وتوج تقدم هذا العلم الأخير تلك المرحلة بتصنيف المادة إلى - 92 - عنصراً، عرفت باسم سلسلة أو تصنيف مندليف، نسبة إلى العالم الروسي ((مندليف)).

ولكن لم يقتنع العقل، كعادته، فظل يسائل الطبيعة: هل الجوهر ((الذرة)) هو الحجر الأخير في عمارة المادة؟ أو أنه جزء يتجزأ إلى أجزاء أصغر منه بكثير؟! ولكن لو أن الجوهر - الذرة - جسم بسيط لكانت سلسلة مندليف مؤلفة من عنصر واحد؟! وهكذا طعن العقل في نظرية فردية (الجوهر - الذرة) واعتبرها جسماً مركباً لا بسيطاً كما كان يعتقد سابقاً.

تمكن العقل بفضل وسائل البحث العلمي أن يستنطق الطبيعة بالجواب. فنقر قشرة ((الذرة)) ونفذ إلى تركيب بنيتها الداخلية، فوجده عالماً رحيباً فسيحاً، على صغره، يشبه عالمنا الشمسي، يسكنه سيارات لا تحصى من الدقائق والجسيمات.

في أوائل القرن التاسع عشر، فتحت التجارب التي أجريت على الظاهرات الكهربائية، الباب على مصراعيه، للبحث في بنية المادة. فقد دلت هذه التجارب على أن الكهرباء ذات الإشارة السالبة (-) تتألف من جسيمات دقيقة جداً تدعى الكهارب أو الالكترونات. وأن الكهرباء ذات الإشارة الموجبة (+) تتألف من جسيمات دقيقة أيضاً وتدعى البروتونات، ودلت هذه التجارب، على أن كتلة البروتون أكبر من كتلة الإلكترون بـ - 2000- مرة.

وهكذا لم تعد الأجسام المادية، مهما صغرت، مؤلفة من (الجواهر الفردية، البسيطة) - أي من الذرات - بل أصبحت الآن بمفهوم العلم، مؤلفة من البروتونات والالكترونات، بأعداد فائقة الضخامة ولم يعد عدد الجواهر 92 جوهراً أو عنصراً مادياً، بل أصبح 92 تشكيلاً للبروتونات والالكترونات.

وأيضاً لم يقف العقل عند هذا الحد من التقدم في معرفة بنية المادة، فما لبث وجه إليها أصبع الاتهام والشك. وساعده، على ذلك، الاكتشاف العلمي الخطير لظاهرة النشاط الإشعاعي. وكان أول من استخدم ظاهرة النشاط الإشعاعي هذا في بنية الذرة، العالم الفيزيائي الانكليزي (رذر فورد).

وذلـك حـين تمكـن مـن تحطـيم الجوانـب الخفيفـة يقـذفها بجزيئـــات (ألفـــا) الصـــادرة عـــن الأجســـام المشـــعة. والعــالم الــدانمركي (نــيلس بــور) الــذي كــان أول مــن شـــبه بنيـــة الـــذرة بالمجموعـــة الشمســـية: لهـــا نـــواة (شـــــمس مصـــــغرة) تـــــدور وتتجـــــاذب حولهـــــا الإلكترونــات، فــي أفــلاك، تمامــاً كمــا تــدور وتتجــاذب الكواكـب السيارة فـي أفـلاك حـول الشـمس، وقـدر هـذا العــالم ســرعة الإلكتــرون فــي حركتــه حــول النــواة بـــ 1500 ميل في الثانية.

وفـــي عـــام 1932 قـــام الســـادة: تشـــادويك، وجوليـــو، والســـيدة قرينتـــه، بتجـــاربهم المشـــهورة علـــى بنيـــة الــذرة، فلاحظــوا أنــه توجــد فــي نــواتج عمليــات تفكــك الـــذرات وانشطارها،جســـيمات غيـــر معروفـــة تعبـــر المــادة بســهولة بالغــة، وتبــدو محايــدة، أي بــلا شــحنة كهربائيـة. رغـم أنـه لهـا كتلـة، تسـاوي كتلـة البروتـون. وسـموا هـذه الجسـيمات الجديـدة بالنترونـات، وطبعـاً، كـــان لهـــا شـــأن فـــي الكيميـــاء النوويـــة - كمـــا هـــو معـــروف. فمـــن اخـــتلاف أعـــدادها فـــي نـــواة العنصـــر تتولـد العناصـر المسـماة - بالنظـائر - التـي تتشـابه مـع العنصـــر الأول بـــالخواص الكيميائيـــة وتختلـــف عنـــه بـــالوزن الـــذري. وبعـــد عـــام، أي فـــي ســـنة 1933، اكتشـــف الســـادة: أندرســـون، وبلاكـــث، وأوكبـــاليني، مـــن خـــلال أبحـــاثهم فـــي عمليـــات التفكـــك الـــذري،

اكتشفوا وجود كهارب - الكترونات موجبة ذات إشارة + وتساوي الكهارب - الالكترونات العادية السالبة ذات الإشارة -، تساويها في الكتلة والشحنة. ما عدا الإشارة - طبعاً..

إذن أصبح لدينا، حتى الآن، أربع جسيمات مادية تتألف منها المادة ككل. هي: البروتون، والإلكترون السالب، والنوترون، والإلكترون الموجب. ولكن عاد العقل إلى شكه الأول. فطعن في - فردية - هذه الجسيمات بالذات وفي عددها بالبنية الذرية - الجوهرية - . وفعلاً توصل العلم في عام 1940 إلى اكتشاف البنية المركبة للبروتون. فهو يتألف من نوترون وكهرب - إلكترون - موجب. وتوصل إلى أن ثمة أعداد هائلة من جسيمات جديدة تدخل البنية الذرية وتزداد فيها ازدياد مذهلاً. وأثبت خاصة تعرف بها هذه الجسيمات الجديدة هي خاصة عدم الاستقرار. فمدة وجودها فائقة الصغر جداً. عرف من هذه الجسيمات الجديدة نوع يدعى - الميزون - وعمره لا يتجاوز جزءاً من مليون جزء من الثانية. وهناك نوع آخر من عمر الميزون. ونوع ثالث منها، وهو بلا شحنة كهربائية ولا يبقى في الموجود إلا لمدة جزء من مائة مليون جزء من الثانية.

وبعد كشف النقاب عن هذه الطبيعة المعقدة لبنية الأجسام المادية، وبعد هذا التقدم السريع في علم الكيمياء الجوهرية - الذرية - أي على ضوء مكتشافات هذه المرحلة الراهنة - يسهل علينا توضيح مفهوم الوحدة في طبيعة المادة، أي إعادة جميع عناصر المادة إلى عنصر واحد. وبالتالي تحقيق حلم الإنسان منذ القديم، باستحالة عناصر مادية إلى عناصر أخرى. والذي كان قد استخدم - السيما- لتحويل المعادن إلى ذهب. أنه بعد اكتشاف ظاهرة النشاط الإشعاعي على يد - رذر فورد - المار ذكره، وبعد التجارب التي قام بها العالم - أوتوهان - في عام 1938 لتفكيك عنصر الأورانيوم. يبين بشكل قاطع أن الجزيئات العنصرية يتحول بعضها للبعض الآخر. بفعل الاصطدامات التي تحدث بينها. وطبعاً يصحب هذا التحول حدوث طاقة عظيمة. فعندما يصطدم جزيئان مزودان بطاقة حركية، فالصدمة تولد جزيئات عنصرية جديدة، مع تحول الجزيئين الأصليين وطاقتهما إلى مادة جديدة وأبلغ من عبر عن هذه الحالة العالم الألماني المعاصر المشهور - فرنر هايزنبرك - حيث قال مبهوراً بها: ((وأجمل وصف لهذه الحالة بأن الجزيئات تتألف في الأصل من مادة واحدة)).

إذن ليس ثمة غير مادة متجانسة واحدة، في الواقع الكيميائي، قابلة للوجود في أحوال مختلفة.

****

صـــدر للمؤلف

الروايات:

1- قرية رمان – دار الاتقان. دمشق 1965م
2- حفنة تراب على نهر جغجغ – اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1978م.
3- الرجل والزنزانة – اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1988م
4- سلاماً يا ظهر الجبل - اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1990م
5- المهندسون – دار علاء الدين. دمشق 1993م.
6- مساحة ما من العقل – وزارة الثقافة. دمشق 1995م.
7- اشتقاقات الفصل الأخير- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1996م.
8- خيمة تخفق تحت الشمس- دار علاء الدين. دمشق 2001م.
9- شعلة لا تنطفئ – دار الينابيع. دمشق 2004م.
10- حنين اللون الأزرق - اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2005م.
11- ما بين السطور... ما بين الصخور – دار الخير. دمشق 2008م.
12- حدث في ذاك الزمان – دار رسلان. دمشق 2009م.
13- حديث الذرى-دار رسلان.دمشق 2011م.

المجموعات القصصية:

1-الرقيق- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 1985م.
2- الحل- دار إيبلا. دمشق 1991م.
3- الطائر الكريم – دار علاء الدين. دمشق1992م.
4- العالم في سهرة - اتحاد الكتاب العرب. دمشق1994م.

5- بركة الطيور – دار علاء الدين. دمشق/ قصص أطفال / 1997م.
6-نفاد الرمل- اتحاد الكتاب العرب. دمشق1998م.
7-طيوف- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2000م.
8-الرهان- اتحاد الكتاب العرب. دمشق2002م.
9- ثمة موت آخر- اتحاد الكتاب العرب. دمشق 2006م.
10- إليك يا ذات النون- دار الينابيع. دمشق 2007م.

الدراسات:

1- موسوعة السويداء مع مجموعة من المؤلفين. دار علاء الدين. دمشق 1995م.
2- من دفتر الكلمات-دار الرأي. دمشق2007م.

الفهـــــرس